رسائل إلى هيباتيا

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: رسائل إلى هيباتيا
تأليف: طارق عبداللطيف
القطع: 14*20
رسومات الغلاف الخلفي: د. أمل شرف
سنة النشر: 2024
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 28209 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 0 - 564 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-564-0

رسائل إلى هيباتيا

تأليف

طارق عبد اللطيف

"تعيشُ البشريةُ كلَّ يومٍ طفولةً جديدةً، طفولةً تحاولُ استكشافَ الحياةِ ومعانيها وأغراضها. لا تريدُ أن تستسلمَ لما اتُّفِقَ عليه من آلافِ السنين، من أنَّ الحياةَ كما عاشها السابقون لا جديدَ في معناها ولا جديدَ في مسارها. اكتشفَ الإنسانُ الكثيرَ وصنعَ الكثيرَ، ونزلَ البحرَ وصعدَ إلى السماءِ. تمردَ عقلُهُ ولفظَ التكرارَ وسئمَ التقليدَ، ولكن تسيرُ روحُهُ ونفسُهُ على نهجِ أجدادِهِ. شوقٌ إلى قلبِ امرأةٍ، وحملُ طفلٍ، ورائحةُ بستانٍ، ودفءُ صديقٍ، وونسُ جارٍ، وحضنُ وطنٍ. تغيرتِ الأشكالُ والألوانُ وظلتْ روحُهُ كما هي. ما أتعسَ الإنسانَ في انشغالهِ عن الحياةِ بأدواتِها. ما أقسى أن يصبحَ عبدًا لأشيائهِ بدلًا من أن يمتلكَها، هي تمتلكُهُ. ما أظلمَ أن يصبحَ الإنسانُ سجينَ نظراتِ الآخرينَ وقهرِ ابتزازِهم. لن يملكَ الإنسانُ حريتَهُ إذا هو لم يملكْ نفسَهُ."

طارق عبد اللطيف

سبتمر ٢٠٢٤

چوليا

اللقاءُ الأوَّلُ

كانت الحياة في نظر چوليا بسيطةً. هي تعمل عملًا شاقًا من أجل الحصول على راتبٍ يكاد يكفي احتياجاتِها، وكانت ترى أنه إذا كانت لا تستطيع أن تزيد من راتبِها فليس هناك غير أن تقلل من احتياجاتِها. وجدت السعادة في أشياء بلا ثمنٍ وتحمل كل معاني الروعةِ والجمالِ: التنزه على قناطرِ أمستردام بين المياهِ والخضرةِ، قراءة كتبِ الأدبِ العالمي التي تعشقها وغالبًا ما كانت تشتريها قديمةً وتعيد بيعَها بعد قراءتِها، الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية من أسطواناتٍ مستعارةٍ، والسباحة على شاطئٍ مجانيٍ في ضواحي هوك فون هولاند. كانت قوتها الحقيقية في كل هذا قناعتَها بأنها تملك مشاعرَها وفكرَها امتلاكًا كاملًا، لا يهزها ما يحدث حولَها، بل كان يملكها غرورٌ من يستغني عن كل شيء. كانت نقطة ضعفِها الوحيدة عاطفتَها الجياشةَ؛ خافت أن تضعف من أجل رجلٍ ما قد لا تملك شيئًا تعطيه له، وخافت أن تجد نفسها في حاجةٍ إلى ما لا تستطيع أن تمتلكَه أو تصبح في يومٍ من الأيام في

مذلةِ عدم قدرتِها على الاستغناء عن هذا الغريب. قررت أن تمنح هذه العاطفةَ من منطلق القدرةِ وليس من منطلق الضعفِ، فعملت بلا مقابلٍ في عديدٍ من الجمعياتِ الخيريةِ وجمعياتِ حقوقِ الإنسانِ، وتبنت قضيةَ الأطفالِ المعاقين. وفي غمرةِ اهتمامِها بقضيةِ التمييزِ العنصري كان لقاؤنا الأول في نهايةِ العامِ ١٩٨٧. كان يمتلكها فضولٌ كبيرٌ تجاه علاقةِ صداقةٍ جديدةٍ مع شخصٍ من العالمِ الثالثِ وعربيٍ ومسلمٍ. لا يمكن وصفُ هذه العلاقةِ سوى بأنها علاقةُ استكشافٍ شاقةٍ جدًا ومعقدةٍ جدًا. لم تكن باعترافِها هي أن تنهزم في عاطفتِها مثلما انهزمت من قدرتي على مواجهةِ فكرِها ومشاعرِها. وكان الصراع في مجملِه بين منطقِ الرياضةِ والفلسفةِ؛ فحياتُها كلها حساباتٌ دقيقةٌ واضحةٌ وصريحةٌ، وأما أنا فمنطقي كان أكثر منه فلسفيًا حيث أن المتعةَ قد تأتي حتى من الخيالِ أو الوهمِ، ولا يمكن إنكارُ أحاسيسِ المتعةِ الحقيقيةِ حتى لو كانت خارج منطقِ العقلِ، لأن الإنسان نشأت داخلَه احتياجُه للمتعةِ قبل أن يعرف الضميرَ والحكمةَ. كان هذا رأيي في عمرِ الثلاثيناتِ، وعندما قاربت الستيناتِ أصبحت أدعي

أن الضميرَ والحكمةَ لابد أن يقودا حياةَ الإنسانِ، وأن السعي وراء المتعِ ما هو إلا لهوٌ غبيٌ، وعلي أن أخاطب أبنائي وتلاميذي من هذا البرجِ العاجي. رجعت لي هذه الذكريات لتخبرني أن ما اعتقدتُه أنه نصرٌ مؤكدٌ في معركةٍ ما في زمنٍ ما يبدو لي الآن أنه هزيمةٌ في معركةٍ أخرى وزمنٍ آخر.

محفوظ

في أكتوبر عام ١٩٨٨، كنتُ أتسكعُ في أوروبا بلا هدفٍ. كنتُ في ذلك الوقتِ يساريَّ الفكرِ، أدبيَّ الهوى، مغرمًا بالمذهبِ العبثيِّ وصمويل بيكيت وكافكا، وأعشقُ المسرحَ الإغريقيَّ. كنتُ أقيمُ لدى چوليا في أمستردام، كانت چوليا دارسةً للأدبِ الإسبانيِّ والمكسيكيِّ، وقارئةً لبعضِ الأدباءِ العربِ مثل يوسف إدريس وروايةِ "الحرام"، والطاهر صالح وروايةِ "موسم الهجرة إلى الشمال". كنا نقضي النهارَ في التجولِ في المتاحفِ الفنيةِ لرامبرانت ولوحتهِ "حارس الليل" وفان جوخ ولوحتهِ "آكلو البطاطا"، ثم نذهبُ إلى بعضِ قاعاتِ الموسيقى لنستمعَ لموسيقى الغرفةِ من ألحانِ باخ، ونذهبُ إلى إحدى السينماتِ لمشاهدةِ أحدِ الأفلامِ المأخوذةِ عن رواياتِ الأدبِ العالميِّ. ثم نقضي الليلَ بطولهِ في نقاشٍ حول الأدباءِ المصريين، وكان كثيرٌ من الأدباءِ المصريين تُترجمُ أعمالهم إلى الإنجليزيةِ والهولنديةِ والإسبانيةِ، وخاصةً توفيق الحكيم وطه حسين ويوسف إدريس. كانت تجيدُ اللغاتِ

الثلاثَ، وكنتُ ألخصُ لها كلَّ ليلةٍ أحدَ كتبِ طه حسين لأنني كنتُ قد قرأتُ له كلَّ كتبهِ، وأحبها إلى قلبي، المغمورةَ منها مثل "المعذبون في الأرض" و"شجرة البؤس" و"دعاء الكروان". وفي ليلةٍ من ليالي شهرِ أكتوبر من العامِ ١٩٨٨، طرقتْ على بابِ غرفةِ النومِ وهي في حالةِ ثورةٍ وهياجٍ شديدين، وتقولُ لي بعصبية: "هل تعرفُ أديبًا مصريًا اسمه نجيب محفوظ؟" قلتُ لها: "طبعًا". سألتني: "لماذا لم تقصَّ لي عنه؟" قلتُ: "أبدًا، لم تأتِ الفرصةُ بعد، وأنا لستُ من عشاقهِ، وكنتُ أحبُّ فقط رواياتهِ الأولى مثل "رادوبيس و كفاح طيبة". فقالت لي: "أنت تضللني، فقد حصل هذا المحفوظُ على جائزةِ نوبل في الأدبِ اليوم." حدثت مشادةٌ أدبيةٌ شديدةٌ بيننا، حُرمتُ بسببها من هذا المنزلِ الدافئِ لمدةِ أسبوعين، قضيتها بين النومِ في بيوتِ الشبابِ أو على أرصفةِ المترو، حتى غفرتْ لي هفوتي الأدبيةَ وسمحتْ لي بالعودةِ إلى السريرِ الدافئِ. وبالمناسبةِ، يومَ العودةِ كان يومَ الحكمِ بعودةِ طابا إلى مصر، وقضينا ليلتها في احتفالٍ جميلٍ بسماعِ أغاني وطنيةٍ مصريةٍ، وقرأتُ لها روايةَ نجيب محفوظ الرائعةَ "السراب" كاملةً.

الحَرام

لم تكن چوليا أبدًا ذاتَ ثراءٍ أو دخلٍ ثابتٍ يجعلها تعيشُ بأيِّ شكلٍ من أشكالِ الرفاهيةِ. هي أقربُ إلى قاعِ المجتمعِ في أوروبا. أكثرُ ما كانت تشتريه إذا استطاعت أن توفرَ أيًّا من دخلِها هو إما بعض الكتبِ أو بعضُ أسطواناتِ الموسيقى العالميةِ أو الحديثةِ وقليلٌ من الزهورِ. بالطبع لم نتحدث عن اللغةِ الإسبانيةِ أو آدابِها التي درستها هي و لجهلي أنا التامِّ بها. بالرغم من ذلك، كانت چوليا تمتلكُ ثقافةً عاليةً جدًا في أن تتحدثَ في الأدبِ الإنجليزيِّ والأمريكيِّ والعربيِّ بقدرةٍ عجيبةٍ. هي قرأت ليوسفَ إدريسَ وتوفيقَ الحكيمِ والطيبِ صالحٍ، وتناقشنا في الأدبِ العربيِّ كما لم أتناقش إلا مع صفوةِ المثقفين في مصر. هي تحملُ مزيجًا من ثقافةِ المجتمعِ الذي تعيشُ فيه وثقافتِها التي اكتسبتها من قراءتِها. هناك فارقٌ كبيرٌ بين التعليمِ والثقافةِ، حتى في وظيفتِها لم تكن مؤهلاتُها هي اللغةَ الإسبانيةَ ولكن كانت ثقافتُها العامةُ وبعضُ من مهاراتِ استخدامِ الآلةِ الكاتبةِ وطرقِ النسخِ. كانت تعيشُ في مجتمعٍ

هوايتُه الأولى القراءةُ والموسيقى. هي من العامةِ وقاعِ المدينةِ الذي يحكمُ المدينةَ. أتذكر أننا في إحدى أمسياتِ صيفِ أمستردامَ المنعشِ وعلى مقهى يطلُّ على جداولِها البديعةِ، انتقدت هي بشدةٍ وضعَ المرأةِ في مصر والشرقِ بأكمله كما جاء في روايةَ "الحرام" ليوسفَ إدريسَ. أخذتني النعرةُ الشرقيةُ والوطنيةُ وبالغت في الدفاعِ عن المجتمعِ المصريِّ دفاعًا مستميتًا وكأنني أدافعُ عن شرفي وعرضي وبلدي. ابتسمت في وجهي ابتسامةً ناقدةً ساخطةً وقالت لي: "أنت تحملُ نفسك ما لا طاقةَ لك به. أنا أحببتُ هذه القصةَ كما لم أحبَّ أيَّ روايةٍ هولنديةٍ. الأدبُ والفنُّ لا وطنَ لهما، هما ملكُ البشريةِ جميعِها. أحببتُ الكاتبَ وحبكتَه، ولو لم يكن صادقًا في وصف وضعِ المرأةِ في مصر لما كان بكلِّ هذه الروعةِ. ثم إنها الحياةُ والأرضُ والإنسانُ مختلفُة تمامًا، لا معيارَ للسعادةِ لها. حتى عزيزةُ بطلةُ حكايتنا هذه قد تكونُ أحسنَ حالًا من غيرِها في لندنَ أو أوستكهولم. نحن نعيشُ عقولَنا وثقافتَنا. أما التعاسةُ الحقيقيةُ هي أن نلبسَ لباسَ الآخرين.

أصالةٌ

نحن نعيش حالةً من القهر الاجتماعي فرضته علينا ازدحامُنا في مكانٍ ضيقٍ جعلنا نراقب بعضَنا البعضَ وشبهَ عرايا معظمَ الوقتِ، ولذلك التجأنا إلى التجملِ والنفاقِ الاجتماعي ومحاولات الهروبِ من تسلطِ الآخرينَ علينا. كانت صديقتنا العربية أصالةُ على النقيضِ تمامًا من چوليا، ففي الوقتِ الذي كانت فيه چوليا ترتدي قلةً من الملابسِ الرخيصةِ ويبدو جسدُها شبهَ عارٍ وذلك لكثرةِ حركتِها وعملِها الشاقِ ورغبةً منها في الإحساسِ بالتحررِ من القيودِ، كانت أصالةُ ترتدي العباءةَ المطرزةَ بآلافِ اللآلئِ المشغولةِ في أرقى محلاتِ الأزياءِ، وفوقَ رأسِها الحجابَ وفوقَ وجهِها النقابَ، ومع ذلك ما كان يظهرُ منها من عيونٍ ورموشٍ يجعلُها أكثرَ إثارةً من چوليا. كانت تستمتعُ بنظراتِ الرجالِ التي تصيبُ عيونَها كالسهامِ وترى منهم زوغانَ العيونِ إعجابًا. كانت چوليا لا تضعُ عطورًا إلا فيما ندرَ، مكتفيةً بالاستحمامِ عدةَ مراتٍ يوميًا لتزيلَ عرقَ المجهودِ الشاقِ الذي تبذلُه في عملِها، بينما كانت أصالةُ تشتري

أغلى العطورِ الفرنسيةِ والهولنديةِ بآلافِ الدولاراتِ وتستطيعُ أن تشتمَّ رائحتَها على بعدِ أمتارٍ عديدةٍ. عندما كنتُ أجلسُ مع چوليا في مكانٍ نناقشُ روايةَ "مائة عامٍ من العزلةِ" لماركيز، كنتُ أشعرُ أنا وهي بالعزلةِ الحقيقيةِ؛ لا أحدَ ينظرُ إلينا ولا أحدَ يهتمُّ بنا، ويصيبني الصداعُ من التركيزِ في المعاني الأدبيةِ والرمزيةِ للروايةِ. عندما كنتُ أجلسُ مع أصالةَ المغطاةِ من رأسِها إلى كعبِها نتحدثُ عن السحرِ المشهورِ به المرأةُ العربيةُ وقصصٍ عن أحداثِ سحرٍ حدثت في حياتِها، كنتُ أشعرُ أن كلَّ الرجالِ المحيطينَ بنا لا يرفعونَ عيونَهم عنها، بل أرى عيونَهم تخترقُ ملابسَها إلى كلِّ جزءٍ في جسدِها. كنتُ أرى في عيونِها نشوةً كبيرةً لإعجابِ الرجالِ حولَنا بها. كنتُ أشعرُ أنني في حاجةٍ إلى خيمةٍ أنصبُها فوقَها حتى أتخلصَ من تسلطِ العيونِ عليها. كانت چوليا ترى قيمةَ الحياةِ الحقيقيةِ داخلَها وبقناعتِها بنفسِها مما يجعلُها متحررةً من عيونِ ومشاعرِ الآخرينَ. كانت أصالةُ ترى قيمةَ الحياةِ كيفما يراها الآخرونَ وبقدرِ إثارتِهم، ولذلك كانت متوترةً مقيدةً تراقبُ ملابسَها وجسدَها وجلستَها طوالَ الوقتِ. كنتُ أرى أن چوليا أكثرُ إثارةً من أصالةَ.

الذِّئْب

لم تكن صديقتي چوليا تُحبُّ أو تُفضِّلُ أن تظهرَ بمظهرِ الأنثى على الإطلاقِ، بل على العكسِ من ذلك، كانت تُفضِّلُ أن تبدو جادَّةً في كلِّ شيءٍ، حادَّةً في قراراتِها وملبسِها. كانت مُقتنعةً أن جمالَها وجسدَها هبةٌ من الطبيعةِ والجيناتِ، ليس لها أن تفخرَ بهما، بل لها أن تفخرَ بثقافتِها التي أثرتْها جيدًا بقراءاتٍ متنوعةٍ على مدى سنينَ، وإتقانِها للغةِ الإسبانيةِ التي درستْها في الجامعةِ، وكتاباتِها الأدبيةِ في الدورياتِ. كانت ترتقبُ صديقًا يرى عمقَها قبل أن يرى سطحَها، بالإضافةِ إلى كونِها ضدَّ التمييزِ العنصريِّ بأيِّ صورةٍ، سواءً في الجنسِ أو الدينِ أو العرقِ. كانت متمردةً جدًا على وضعِها الوظيفيِّ، كونَها بكفاءتِها وثقافتِها تحصلُ على راتبٍ أقلَّ من زميلِها الرجلِ، وهذا نظامٌ معمولٌ به في هولندا وفرنسا، حيثُ أن راتبَ الرجلِ أعلى من راتبِ المرأةِ في نفسِ الوظيفةِ، حتى في التقدمِ للوظيفةِ الأولويةُ للرجلِ إن تساووا في الكفاءاتِ.

في أولِ معرفتي بچوليا، كانت قد قامت بدورةٍ تدريبيةٍ شاقةٍ للحصولِ على دبلومةٍ في التسويقِ يمكن أن ترقيها على زميلِها في

نفسِ العملِ. تقدمتْ عدةَ مراتٍ للترقيةِ، وكان مديرُها يؤجلُ طلبَها بدون إبداءِ الأسبابِ. في يومٍ من الأيامِ، طلب منها أن ترافقَه في مهمةِ عملٍ لإسبانيا كونَها تجيدُ الإسبانيةَ. أسعدَها هذا الطلبُ لأنه تقديرٌ لأحدِ قدراتِها، لكنها فوجئتْ في الفندقِ بأنه حجزَ غرفةً مزدوجةً ليقيما فيها سويًا، مما يعتبرُ خروجًا عن الآدابِ والتقاليدِ، بالإضافةِ إلى العرفِ السائدِ في مثلِ رحلاتِ العملِ هذه. رفضتْ هذا الوضعَ وأبدتْ استياءَها، بينما بررَ هو ذلك بضغطِ المصاريفِ وعدمِ وجودِ غرفٍ فارغةٍ عند طلبِه الحجزَ. اضطرَّ أن يستجيبَ لطلبِها ويحجزَ لها غرفةً خاصةً. في مساءِ نفسِ اليومِ، طلب منها أن ترافقَه إلى غرفتِه لمناقشةِ بعضِ أمورِ العملِ، بالإضافةِ إلى طلبِ الترقيةِ المقدمِ منها. وافقتْ ورافقتهُ، وبينما هم في غمرةِ العملِ، حاول التحرشَ بها كلاميًا، فصدتهُ بعنفٍ وحاولتْ الذهابَ إلى غرفتِها. واجهَها هو بالحقيقةِ المرةِ التي صدمتها طوال حياتِها حتى اليومِ. قال لها إنها لم تقدمْ له أفضلَ قدراتِها وإمكاناتِها في سجلِّ الترقيةِ، وهو شخصيًا ما زال يرى أن جسدَها أقوى مستنداتِها، وأن جمالَها أهم أوراقِها في العملِ، وأن الدوراتِ والدراساتِ أشياءٌ جافةٌ غيرُ حيةٍ لتقنعَه بها. توترتْ چوليا بشدةٍ

وطلبتْ أن تتركَ مهمةَ العملِ وترحلَ على الفورِ إلى أمستردام. رفضَ الرجلُ وهددَها بالفصلِ من العملِ. سقط في يدِ چوليا، فهي في ورطةٍ كونَها لا تستطيعُ تركَ العملِ ولا تستطيعُ تلبيةَ رغبةِ مديرِها.

قضتْ چوليا ثلاثةَ أيامٍ بصحبةِ هذا الذئبِ دون أن ينالَ مرادَه، وعادتْ إلى العملِ في اليومِ الرابعِ لتفاجأَ بأن مديرَها قد أصدرَ قرارًا بترقيةِ زميلِها الذي لم يحصلْ على الترقيةِ. فكرتْ في الاستقالةِ وهي لا تدري ماذا تفعلُ بعد. كلمتني في ألمانيا لتستشيرَني. قلتُ لها لا تتركي العملَ، إذا كان هذا هو النظامُ الوظيفيُّ لديكم فلا حيلةَ لك في الأمرِ، وأما سوءُ سلوكِ مديرِك فهو لم ينلْ منك، ويكفيكِ صلابتُك وتمسكُك بمبادئِك، ودعيه وشأنه يتجرعُ مرارةَ فشلِ محاولتِه. ظلتْ فترةً من الزمنِ تشعرُ بالإحباطِ والضعفِ حتى خبرتْ أن هذا سلوكُ البشر الطبيعيُّ، وأن أحاديثَ القيمِ والأخلاقِ ما هي إلا لحفظِ ماء وجهٍ كاذبٍ يتجملُ به الإنسانُ وقتما يحتاجُ لذلك بعد أن يشبعَ رغباتِه.

الصَفعةُ

حدث الأنفجار العظيم تناثرت الذرات و الجزيئات فى الفراغ حتى اذا بلغ مداه و هدأ و بَرَدَ تراكمت الذرات و الجزيئات مرة أخرى و تكونت الأشياء كل أشياء الكون و ملأت الفراغ الهائل. شئ واحد ظل منقوصا ثائر لم يهدأ و لم يبرد بعد ألا و هو جسد الأنثى. ظل جسدا منقوصا لم تتراكم كل جزيئاته حتى كأنه يعيش نفس الأنفجار الأول بأستمرار. جسد ضعيف فى حاجة الى ذراع تحيطة و ثديٌ فى شوق الى فم رضيع و رحمٌ يتوق الى نبةٌ توقف دمعه المدمى. كانت حكمة من الخالق أن تظل المرأة فى حالة الأنفجار و كأنها آتون الحفاظ على الخلق و أستمرار نسل الحياة. تبقى الأنثى هى الأنثى على مر تاريخ البشرية المجهول.

فى شتاء عام ١٩٨٨ كنت أغط فى نوم عميق عندما سمعت أصوات خارج غرفة النوم. قمتُ مفظوعا و أيقظتُ چوليا و قلت "لها هناك غريب فى البيت" أبتسمت و قالت "نم ولا تشغل بالك أنها جارتنا مارين فتحت الشقة لتضع دراجتها لتستخدمها أنت لأنها مسافرة

الى أسبانيا مع زميل لها فى العمل لقضاء أجازة رأس السنه هناك".
"مع صديقها؟ جارتنا مارين متزوجة و أنا أعرف زوجها هيث".
قلت لها ذلك. قالت هيث يعلم ذلك و لكنه يعلم أيضا أن زميلها هذا شخص شاذ جنسيا و أنهما سيكونا مثل الأخوة أو قل مثل الأخوات. لم أستوعب ما قالت و لم تغفو لى عين حتى الصباح.
فى ربيع ١٩٨٩ أتصلت بى چوليا لتخبرنى أنها ستسافر الى أسبانيا فى مهمة عمل لمدة أسبوعين. أنزعجت جدا و سألتها بصحبة من؟ أكدت أنها بمفردها و ستنزل فى فندق على البحر و لو سمحت ظروف عملى من الممكن أن أذهب لها لنقضي عطلة نهاية الأسبوع معاً. كانت ظروف عملي تسمح بذلك و لكن ظروفى المادية لا تسمح. مر الأسبوعان و طوال هذه الفترة كنت متوجس من هذه الرحلة. ثم جاء الأسبوع الثالث و في نهايته قابلتنى فى محطة القطار فى نهار هذا اليوم فذهبنا لنشترى بعض الكتب و الزهور كالعادة و كنت قد لاحظت أن لون بشرتها قد أكتسب سمره بفعل الشمس و عرفت منها أنها أستمتعت جدا بحمامات الشمس على شواطئ البحر. عندما عندنا الى البيت أكتشفتُ من لون

بشرتها انها لم تكن ترتدى لباس البحر كاملا و انما نصفه السفلى فقط. ثارت الدماء فى عروقى و أنفعلت جدا و أحمر وجههى و واجهتها بذلك فأبتسمت و قالت لى كأنك لم تعش يوماً واحدً فى أوربا مازلت مشغول بجسد المرأة و نحن لا نرآه ألا مثل جسد الرجل و انت ترى الرجال يمشون عرايا على الشواطئ. لم أتمالك نفسي و فجأه أجدنى قد رفعتُ يدى و صفتها على وجهها صفعة شديدة جدا. صدمت چوليا و جلست على الفوتيه و رأيت عيناها و هى المرأة القوية العنيدة مغرورقة بالدمع. بعد عودة وعيي اليً تخيلتها تتصل بالشرطة ليُقبض على و أرتمى بالحجز و قد أطرد من البلاد أو أدفع غرامة مالية كبيرة مع الحبس. ظلت هى صامته فى مكانها و كانت حقيبتى كما هى منذ الصباح ففكرتُ أن آخذ الحقيبة و أهرب مسرعا الى ألمانيا. بعدما أخذت الحقيبة و بمجرد أن فتحت باب الشقة سمعت صوتها يأتى خافتا من ورائى. قالت أنت لست مضطر للخروج الآن اليوم السبت و قد لا تجد قطارات تقلك حتى الصباح الباكر. يمكنك أن تذهب فى الصباح. لم أصدقها و أعتقدت أنها تريدنى أن أبقى حتى تتصل بالشرطة. خرجت

مسرعا من البيت و صَدَقت حيث قضيت ليلة باردة فى محطة القطار حتى الساعة الخامسة صباحا. مر الأسبوع التالى و أنا لا أجرؤ على مكالمتها حتى كان يوم الجمعة مساءا عندما فوجئت بها تفتح باب مسكنى فى المستشفى وكان معها مفتاح للمسكن و هى حاملة حقيبة ملابسها و باقة من زهور الأوركيد التى أحبها و رواية بيت الأرواح لأزابيل إليندى. أكتشفت أن چوليا بعد تلك الصفعة و هي المرأة العنيدة القوية قد تحولت الى أمرأة أخرى تماما و قد تغير الجزء الثانى من حياتنا تماما تذكرت معها الممثلة آمال زايد فى فيلم بين القصرين و زينات صدقى فى فيلم أبن حميدو و الأم فى رواية الأرض الطيبة لبرل بك. المرأة هى المرأة الوعاء الحافظ على نسل الحياة.

فيلمٌ أمريكيٌّ

حقيقةً، كانت چوليا مختلفةً كثيرًا عن الأخريات، ولم تكن أيضًا تتعمد أن تكون كذلك. هي نشأت في بيئةٍ قاسيةٍ جدًا بين أبٍ مخمورٍ أرعن وأمٍّ ضعيفةِ الشخصيةِ، مستسلمةٍ لقسوةِ الأبِ، ومنكسرةٍ أمام أخٍ معوقٍ جسديًا وعقليًا. بكلِّ قوةٍ، رفضتِ الأبَ، ولم تحترمِ الأمَّ، وضعفتْ أمام أخيها المشوَّهِ. تركتْ هذا البيتَ المظلمَ، وذهبتْ تجوبُ شوارعَ أمستردامَ باحثةً عن بدايةٍ جديدةٍ، أرادتْ بها أن تعيشَ بلا تاريخٍ، وهي لا تدركُ أنها حملتْ معها كلَّ عقدِ طفولتها، وأنها أصبحتْ إنسانًا انتهتْ صناعته في مصنعٍ فاسدٍ. أكثرُ ما كنتُ أراهُ فيها هو خوفُها من الناسِ، وتجنبُها الاختلاطَ بالآخرين بقدرِ ما تستطيعُ. كانت تعملُ دائمًا على أن نكونَ بمفردِنا في ذهابِنا وإيابِنا، وألا نذهبَ إلى الأماكنِ المزدحمةِ أو نختلطَ بالآخرين. تبدأُ حكمَها على الناسِ بالنقدِ بدايةً، ثم تراجعُ حكمَها كيفما تسري الأمورُ.

في إحدى ليالي شتاء ١٩٨٨، ذهبنا معًا إلى إحدى دور العرضِ لمشاهدةِ فيلمٍ جديدٍ ذاع صيتُه في كلِّ سينماتِ أوروبا في آنٍ واحدٍ، ويحكي عن مآسي ثلاثٍ من الجنودِ الأمريكانِ بعد عودتهم من حربِ فيتنامَ. لم تظهرْ أيَّ تعاطفٍ مع قسوةِ هذه المآسي، وكنتُ أنتقدُ مشاعرَها هذه، وأرى فيها قسوةً لم أعهدْها فيها، فإذا بها تنتقدُني أنا، وتدعي أنني مثل كلِّ الشرقيين، تخدعني دموعٌ كاذبةٌ، وأن كلَّ الشرقِ يعيشُ انفعالاتِ المشاعرِ بعيدًا عن كلِّ الواقعِ وأيِّ من العقلِ.

دبَّ الخلافُ بيننا حتى أنني قد عزمتُ على تركِ أمستردامَ، والعودةِ إلى مدينتي آنذاك إسن بعد نهايةِ هذا الفيلمِ. تعجبتْ من قراري هذا، وقالتْ لي: "ما الذي يجعلكَ تكرهني هكذا... بسبب اختلافِ وجهاتِ النظرِ؟". قلتُ لها: "هذا ليس اختلافَ وجهةِ نظرٍ، ولكن أنتِ أظهرتِ قسوةً شديدةً في مشاعركِ". سألتني: "وهل أبديتُ هذه القسوةَ معكَ أنتَ من قبلُ مع طولِ هذه العلاقةِ؟". قلتُ لها: "لم يحدثْ". قالتْ ساخرةً: "أتكذبُ مشاعرَ حقيقيةً تشعرُ بها تجاهي، وتصدقُ مشاعرَ أظهرُها نحو قصةِ فيلمٍ من خيالٍ. ألم

أقلْ لكَ أنكَ شرقيٌّ قحٌّ؟”. اختلَّ تفكيري، ولم أستطعْ الإجابةَ. تركنا الفيلمَ في منتصفِه، وذهبتْ بي إلى شرابٍ ساخنٍ في أحدِ المقاهي القريبةِ من دورِ العرضِ هذه. أقنعتني بعدم العودةِ إلى إسن، وتكلمنا عن الصدقِ في المشاعرِ، وأن تقلبَ مشاعرِ البشر هو نتيجةُ عدمِ صدقِ أيٍّ منها. كثيرٌ من المشاعرِ تكونُ كاذبةً أو غيرَ حقيقيةٍ، ينجمُ عنها مشكلاتٌ جمةٌ بين المتحابين أو حتى الأصدقاءِ. لا تركنْ إلى نبضاتِ قلبٍ أو رعشةِ يدٍ، ولكن ابحثْ عن حبٍّ لكيانِ إنسانٍ وعقلِه وروحِه، فإن أحببتَ فيه هذا، فهذه مشاعرُ صادقةٌ حتى إن اختلفتَ معه في كلِّ شيءٍ آخرَ غيرَ هذا الكيانِ.

آنا كارنينا

ما هذه العبثية التي نحياها؟ يمضي الزمان شئنا أم أبينا، يخطف أعمارَنا ويُبلي أجسادَنا ونحن لا حولَ لنا ولا قوةَ. يسرع بوتيرةٍ واحدةٍ كبندولِ الساعةِ، لا قيمةَ ولا استجابةَ إن رغبنا أن يسرع أو يبطئ، فلن يطيعَنا. ما العملُ سوى أن نلهثَ خلفَه، نلتقطَ أنفاسَنا ونخطفَ من الحياةِ ما نستطيع. ألم يكن من الممكنِ أن نوقعَ عقدًا مع الزمانِ نتفقُ فيه على موعدٍ لبدايةٍ وآخرَ لنهايةِ الحياةِ، وعلى مكاسبَ وخسائرَ ثابتةٍ؟ ترى هل تروقُ لنا الحياةُ وقتئذٍ؟ يا لروعةِ الفكرةِ، ولكن من يلبّي؟

اتصلت بي چوليا مساءَ ليلةِ نهايةِ الأسبوعِ الأخيرِ من عامِ ١٩٨٨. الشتاءُ قارسٌ، ولكن بهجةَ الأعيادِ تعمُّ جميعَ مدنِ أوروبا. لا خططَ لقضاءِ الكريسماسِ أو رأسِ السنةِ، فكلانا تنابلةٌ، لا تبهرنا زينةُ المدنِ ولا يثيرنا صخبُ المتسكعين، ولا عشقَ لنا سوى للأدبِ والفلسفةِ والموسيقى. فلا بأسَ أن نقضي ليلتين أو ثلاثًا معًا، نتحاورُ ونتجادلُ حول شخصيةِ آنا كارنينا بطلةِ الرائعِ

دوستويفسكي، أو نتعمقَ في عمقِ روايةِ مدام بوفاري وهل هي معنى للأملِ أم لليأسِ. ما رأيك في روايةِ الأمِ لبيرل باك الأمريكيةِ الصينيةِ؟ إنها تحملُ كلَّ صراعاتِ المرأةِ منذ بدءِ الخليقةِ حتى اليومِ، لا خلافَ حول دينٍ أو عرقٍ أو لونٍ أو وطنٍ. ما هذه الروعةُ! إنها شبيهةٌ بأمنا حواءَ، وهي الأمُّ بكلِّ معنى الفطرةِ. الأنثى هي الأنثى، مشاعرُها، معاناتُها، صراعُها من أجلِ بقاءِ النسلِ، إنها حقيقةُ الوعاءِ الحافظِ للبشريةِ، لا فرقَ بين شرقٍ أو غربٍ. اختلفت الحضاراتُ واللغاتُ والألوانُ والتقاليدُ، ولم تختلف الأنثى. حتى أنا أحسستُ هذا في علاقتي بجوليا، فبالرغم من الصدمةِ الحضاريةِ التي واجهتها في بدايةِ حياتي في أوروبا منذ شبابي المبكرِ، إلا أنني أحسستُ تجاهها نفسَ إحساسي تجاه أمي وأختي وجارتي صاحبةِ الحبِّ الأولِ في حياتي. هي المعنى المطلقُ للمرأةِ، تختزلُ العلاقةَ في كلماتٍ مثل الحبِّ والعشقِ والشوقِ والغيرةِ، وحتى كلِّ المعاني الحياتيةِ الأخرى. داخلَ غرفتنا وبين نظراتِنا ولمساتِنا يلتقي الشرقُ والغربُ. قد يرى البعضُ المرأةَ الغربيةَ صريحةً، عاريةً، لعوبًا، متحررةً. لم أجدها هكذا. هي فقط أكثرُ صدقًا في مشاعرِها

وسلوكِها، وأكثرُ سترًا لضعفِها ومعاناتِها. في النهاية، المرأةُ هي آنا كارنينا الروسيةُ، وهي عزيزةُ يوسف في "أدرس في الحرام"، وهي مدام بوفاري الفرنسيةُ.

الجدةُ

الملل حتميٌّ في حياةِ الإنسانِ، ويبدو ذلك بسببِ طولِ عمرِ الإنسانِ أكثرَ مما ينبغي. فقد كان يكفيهِ أن يعيشَ حتى الأربعينَ أو الخمسَ والأربعينَ، حينها يكون قد استنفدَ سنواتِ براءةِ الطفولةِ وعنفوانَ الشبابِ وقدراتِ الرجولةِ، ويكون قد استمتعَ بالجنسِ الآخرِ وأنجبَ الأولادَ والبناتِ ورعاهم حتى البلوغِ وأعطى الأرضَ ما يستطيعه من عمارٍ. أما السنواتُ التي تلي ذلك فلا معنى ولا قيمةَ لها، حين تبدأ قدراتُ الإنسانِ العقليةُ في النضوبِ، وحين يطلقون على بلاهةِ الشيخوخةِ حكمةً، وعلى عجزِ الجسدِ بركةً. ويعيشُ هذا الكمُّ البشريُّ في مللٍ وتكرارٍ، ينظرُ للحياةِ نظرةَ المتفرجِ والمذهولِ من تقلبِ الزمانِ والأحوالِ.

في صيفِ عامِ ١٩٨٩ البديعِ، اصطحبتني چوليا في جولةٍ في شمالِ هولندا عند بلدةٍ تدعى دلفتَ لقضاءِ عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ على بحرِها الهادئِ. نسبحُ ونغوصُ ونأكلُ سمكَ الهارينجِ النيءَ الذي يُخزنُ في براميلِ الملحِ والبصلِ، وهي أكلةٌ عشقتها في سواحلِ

أوروبا الشماليةِ. في مساءِ يومِ السبتِ، وكنتُ قد حلمتُ بسهرةٍ موسيقيةٍ سوياً في الفندقِ، طلبت مني چوليا أن نذهبَ لزيارةِ قريبةٍ لها تقطنُ على مسافةٍ قريبةٍ من الفندقِ الذي كانت قد اختارته بنفسِها. فوجئتُ أننا نزورُ جدتَّها لأمِها التي تنزلُ بإحدى بيوتِ العجزةِ في هذه المدينةِ. لم أتخيلْ أن أرى مثلَ هذه الحياةِ. عددٌ كبيرٌ من النسوةِ يرتدين جميعاً نفسَ الزيِّ من بلوزةٍ عاريةٍ بيضاءَ وبنطالٍ أبيضَ، وأعمارُهن تتراوحُ بين الثمانينَ والخمسِ والتسعينَ. كأنني أرى أطفالاً يلهون سوياً. كلُّ شيءٍ في الغرفِ من القماشِ أو البلاستيكِ الطريِّ حتى لا يصبن أنفسَهن بالأشياءِ الصلبةِ أو الحادةِ. يسيرون حولَ بعضِهم البعضِ بلا هدفٍ، في عيونِهم نظراتٌ تائهةٌ وعلى شفاهم ضحكاتٌ بلهاءُ. جدةُ چوليا في الثالثةِ والتسعينَ ومصابةٌ بالزهايمرِ، ومع ذلك نظرت إلى چوليا نظراتٍ تحملُ الكثيرَ من معاني الشكرِ والعرفانِ وكأنها قد تعرفت بها. أطعمتها چوليا بعضَ قطعِ الشوكولاتةِ في فمِها وأسقتها اللبنَ والماءَ، ثم طبعت قبلةً على شفاها وودعتها. في الطريقِ إلى الفندقِ، سرتُ بجوارِ چوليا مذهولاً مما رأيتُ وقلتُ لها: هل

يتخيلُ أحدُنا أن يصلَ به العمرُ إلى هذه السنِّ ويعيشَ مثلَ هذه الحياةِ؟ قالت لي: لا أحدَ يعيشُ سوى زمانِه ولحظاتِه ولا يستغربُهما، ويصبحُ الماضي بالنسبةِ له خيالاً قد لا يصدقُ أنه حدثَ بالفعلِ. دعنا نعيشْ ليلتَنا هذه، نأكلْ ما أحضرناه من أسماكِ الهارينجِ المملحةِ ونستمعْ إلى موسيقى أم كلثوم في "هذه ليلتي"، وليأتِ بعد ذلك ما يأتي، وسوف نعيشه حتى لو لم نكن نتوقعه أو نحبه.

إيفانز

لترى الصورةَ الكاملةَ، عليكَ ألا تسألَ أيَّ إنسانٍ، لأنَّ السؤالَ يجعلُ المجيبَ يفكرُ فيما سيقولُه، قد ينقصُه شيئًا وقد يُجمِّلُه. الأفضلُ أن تلتزمَ الصمتَ وتستمعَ إلى الناسِ يتكلمونَ عفويًا. لترى الصورةَ كاملةً، عليكَ ألا تُظهرَ مشاعركَ للآخرينَ سواءً بالحبِّ أو الكراهيةِ، دعهم يحاولونَ استكشافكَ ويتكلمونَ عنكَ في غيبتكَ ويستهلكونَ مشاعرَهم في حيرةٍ وعفويةٍ. صمتُ اللسانِ والقلبِ هما النظارةُ المكبرةُ لما يدورُ حولكَ.

في العامِ ١٩٨٨ كانت بدايةُ معرفتي بچوليا ، وفي الشهورِ الأولى اعتدتُ على نظامِ حياتِها. هي تذهبُ للعملِ في الساعةِ السادسةِ صباحًا وتعودُ في الخامسةِ مساءً، وكنتُ أشفقُ عليها من طولِ ساعاتِ العملِ. كان عملُها قريبًا جدًا من البيتِ، لا يستغرقُ أكثرَ من عشر دقائقٍ بالدراجةِ. في بدايةِ العامِ ١٩٨٩ قامت أزمةٌ سياسيةٌ بين الحكومةِ واتحادِ العمالِ على أثرِ طلبِ اتحادِ العمالِ تقليصَ ساعاتِ العملِ نصفَ ساعةٍ في اليومِ لأزديادِ أزمةِ المرورِ

وساعاتِ الذهابِ والعودةِ من العملِ، وهاج الإعلامُ والنقابيونَ وممثلو الحكومةِ، كلٌّ يبررُ موقفَه. في سهرةٍ أمامَ التلفزيونِ مع چوليا ، طالبَ ممثلُ اتحادِ العمالِ أن تكونَ ساعاتُ العملِ من الساعةِ السابعةِ والنصفِ صباحًا بدلًا من الساعةِ السابعةِ وحتى الساعةِ الرابعةِ مساءً. فوجئتُ بمواعيدِ العملِ هذهِ، فقد اعتقدتُ أنها من الساعةِ السادسةِ حتى الخامسةِ كما اعتدتُ أن أرى چوليا . ظهرَ استغرابي على وجهي ولمحتُ نظراتِ چوليا لي تحاولُ أن تستكشفَ ما في عقلي. سادَ صمتٌ بيننا وأنا في حيرةٍ وضيقٍ مما عرفتهُ، ولكني آثرتُ الصمتَ وعقلي مشغولٌ، وهي أدركتْ ذلك لكنها استمرتْ في صمتِها. مرت عدةُ أيامٍ وكلٌّ منا مشغولُ البالِ وصامتٌ معظمَ الوقتِ، لا يأكلُ بشهيةٍ وانقطعنا عن الخروجِ للتنزهِ. عندما احتدَّ الوضعُ، طلبتْ مني چوليا أن أستيقظَ مبكرًا للذهابِ معها إلى العملِ، واستعارتْ دراجةَ جارتِها أوديتَ لأذهبَ بها. خرجنا الساعةَ السادسةَ صباحًا، وبدلًا من الذهابِ إلى دارِ سفيرٍ حيث تعملُ، ذهبنا إلى مركزٍ طبيٍّ للتأهيلِ الوظيفيِّ. مررنا بممراتٍ وحجراتٍ حتى دخلنا إلى غرفةٍ بها شابٌ لا يتجاوزُ عمرُه

السابعةَ عشرةَ، يبدو في حالةٍ صحيةٍ سيئةٍ للغايةِ، يبدو مشلولًا في أطرافِه الأربعةِ ويسيلُ اللعابُ من فمه وتبدو عليه البلاهةُ الذهنيةُ. كان هذا إيفانز، شقيقَ چوليا الوحيدَ، والذي ولدَ يعاني من تخلفٍ عقليٍّ وجسمانيٍّ شديدٍ. فهمتُ من حديثِها مع الراعيةِ الصحيةِ للشابِ أن چوليا تأتي يوميًا في السادسةِ صباحًا لإفطارِه، وتأتي مساءً في الثانيةِ عشرةَ "ساعةِ راحةِ العملِ" لإطعامهِ الغذاءَ، وأخيرًا في الرابعةِ مساءً لإطعامهِ وجبةَ العشاءِ قبل ذهابِها إلى المنزلِ. بعد هذهِ الرحلةِ لم نكن في حاجةٍ إلى الكلامِ، ولكن تكلمتِ العيونُ الدامعةُ والمشاعرُ الملتهبةُ. صمتُنا في السابقِ جنبنا صراخًا قد يرقى إلى سبابٍ، وأظهرَ أكثرَ عن مشاعرَ دفينةٍ صامتةٍ داخلَ كلٍّ منا، كانت في ذلك الحينِ شيئًا من بهاراتِ الحياةِ الشهيةِ والحارقةِ.

أغتصاب

اختلف علماءُ علمِ الاجتماعِ في وضعِ تعريفٍ لكلمةِ الحضارةِ. حتى إذا اتفقوا على أنها مجملُ النتاجِ الثقافي لمجتمعٍ ما، اختلفوا مرةً أخرى على وضعِ تعريفٍ لكلمةِ الثقافةِ. أنا أرى أن الحضاراتِ الحاليةِ مثلُ الأواني المستطرقة؛ ما يبدو في القاعِ متساوٍ بين كل الحضاراتِ ويمثل الغرائزَ البشريةَ الفطريةَ، وما يبدو مختلفًا ما هو إلا ديكورٌ من بعض المكاسبِ مثل الأدبِ والعلومِ الإنسانيةِ والفنِ والحرياتِ وخلافهِ.

في العامِ ١٩٩٢ كنتُ في إعارةِ عملٍ في أحدِ المستشفياتِ الخاصةِ بمكةَ المكرمةِ، وفي أحدِ الأيامِ دخلتْ على العيادةِ امرأةٌ بدويةٌ في الثلاثينياتِ من العمرِ وهي في حالةٍ يُرثى لها من الارتباكِ والقلقِ والتوترِ النفسي، وفي صحبتها غلامٌ لا يتجاوز عمره ١٢ سنة. طلبتْ مني أن أكشفَ على الغلامِ لأنها تشكُ أن زوجها قد قام باغتصابهِ وهتكِ عرضهِ. صدمتُ من الطلبِ، فقصتْ لي حكايتها. هي مطلقةٌ منذ سنتين، وبعد وفاةِ والدها وورثها مبلغًا كبيرًا من

المالِ، تقدم لها أحدُ أقاربها للزواجِ بها. رغم مرورِ ٣ أشهرٍ على زواجها، لم يقتربْ منها الرجل، وإنما اكتشفتْ أنه يتركها حتى تنامَ ثم يصحو لينفردَ بالغلامِ ابنها. لم تدركْ ماذا تفعل، وتخاف أن تبلغَ أمها وأقاربها خوفًا على الولدِ من الفضيحةِ وابتزازِ زوجها لها ماديًا ليتركها. هذا ما حدث في الشرقِ.

في العامِ ١٩٨٨ كانت هناك فضيحةٌ كبيرةٌ في لندن عندما اغتصب أبٌ ابنتهُ وحكم عليه بالسجنِ تسعَ سنواتٍ. كنتُ في ذلك الوقتِ جالسًا مع بعضِ الأصدقاءِ والصديقاتِ في أمستردام نناقش هذا الحكمَ، وكنا ثلاثةَ شبابٍ وستَ فتياتٍ. البعضُ يرى أن الحكمَ مشددٌ، والبعضُ يرى أنه مخففٌ وكان من المفروضِ أن يكونَ أقسى من ذلك. من الغريبِ أن الصحفَ الهولنديةَ تناولت الموضوعَ باستفاضةٍ، وأجريتُ بحثًا ميدانيًا أظهر فضيحةً مدويةً في هولندا وهي أن واحدةً من كل ستِ بناتٍ في هولندا تعرضن لمحاولةٍ من أبيها أو أخيها. ناقشنا الموضوعَ، وقالت إحداهن إن هذا تقريرٌ غير دقيقٍ ومبالغٌ فيه بدليل أننا الآن ستُ فتياتٍ، هل يا بنات تعرض أحداكن للاغتصابِ؟ ضحكن ونفين جميعهن

تعرضهن لهذا الموقفِ. بعد قضاءِ السهرةِ كنتُ في طريقِ عودتي إلى مدينةِ أوترخت بصحبةِ أحدِ الشبابِ وصديقتهِ في سيارتهما، ودار أغربُ حديثٍ لم أتوقعه. عرفتُ منه أن فراو إميليا، والبالغة من العمرِ في ذلك الوقتِ ستةً وعشرين سنةً، قد تعرضت لمحاولةِ الاغتصابِ من والدها عندما كانت في عمرِ الثامنةَ عشرةَ، وأنها ثارت وهاجت وأبلغت والدتها بما حدث فلم تعر الموضوعَ أي اهتمامٍ وأخذت منه موقفًا سلبيًا بل اتهمتها بالمبالغةِ في وصفها حادثةَ الاغتصابِ. تركت إميليا المنزلَ وقاطعت والديها لمدةِ سبعِ سنواتٍ حتى جاء يومٌ اتصل بها والدها وطلب منها الحضورَ إلى المنزلِ لأن والدتها قد أصابها ورمٌ في صدرها منذ سنتين وهي الآن تحتضر وتطلب أن ترى ابنتها الوحيدةَ قبل وفاتها. رفضت إميليا طلبَ أبيها، وبالفعل توفيت الأم بعد أسبوعين ولم تذهب إميليا إلى جنازتها، بل إنها حتى اليوم لا تشعر بالندمِ مما فعلت. هذا ما حدث في الغربِ.

كما يقول المثل الإنجليزي: "East or west, home is best".

الحُب في زَمن الكوليرا

تعلَّمتُ من صديقتي الصغيرةِ العنيدةِ چوليا أنَّ مُجمَلَ ما نملكُ من أشياءٍ ومشاعرَ شيءٌ ثابتٌ، فكلما كثرتْ أشياؤنا وأملاكُنا قلَّتْ مشاعرُنا.

اليومَ مررتُ على بائعِ الجرائدِ في ميدانِ المنتزهِ بمدينةِ الزقازيقِ، وهو في الأصلِ رسامٌ تشكيليٌّ رائعٌ، ويبيعُ الكتبَ الجديدةَ والقديمةَ. واليومَ وجدتُ لديهِ بالةَ كتبٍ قديمةٍ يبدو أنَّه حصلَ عليها من شخصيةٍ رائعةٍ. البالةُ تحتوي على كمٍّ هائلٍ من كتبٍ وروايات الأدبِ العالميِّ والمسرحِ الإغريقيِّ والأوروبيِّ. كان هناك تشيكوف وبيراندللو وتولستوي وبيرل بيك وفلوبير وبلزاك وهيمنجواي وتينيسي ويليامز وبيكيت وكافكا. قررتُ أن أشتريَ البالةَ كلها، وبها ما يزيدُ عن مائتي كتابٍ، تركتُهُ يُقيمُ سعرَها ويُنظفُها على أن أمرَّ عليه آخرَ اليومِ. في طريقي إلى عيادتي راجعتُ نفسي: متى يا ترى سوف أملكُ الوقتَ لإعادةِ قراءةِ هذا الكمِّ الهائلِ من تراثِ العقلِ البشريِّ؟ أين أجدُ مكانًا مناسبًا لأضعَ هذه

الكتبَ وأنا عيادتي وبيتي مكتظانِ بالكتبِ؟ سبحانَ اللهِ، أنا أملكُ المالَ ولكنِّي لا أملكُ لا المكانَ ولا الزمانَ.

تذكرتُ حادثةً حدثتْ لي مع صديقتي چوليا في العامِ ١٩٨٨. كان قد ظهرَ كتابُ "آيات شيطانية" للكاتبِ الهنديِّ الضحلِ سلمان رشدي، وبعد فتوى آيةِ الله الخميني كان كلُّ إعلامِ العالمِ يتحدثُ عن هذا الكتابِ وعن الفتوى القاتلة. في نفسِ هذا التوقيتِ كانت روايةُ "الحب في زمن الكوليرا" للأديبِ الكولومبيِّ جابرييل جارسيا ماركيز الحائزِ على جائزةِ نوبل قد ظهرتْ ترجمتُها الإسبانيةُ. نزلنا سورَ الكتبِ القديمةِ على أحدِ قناطرِ أمستردام. رغبتُ جدًا أن أشتريَ كتابَ "آيات شيطانية" في حين أني أعلمُ أن صديقتي المحبوبةَ تريدُ أن تشتريَ روايةَ "الحب في زمن الكوليرا". لم نكن نملكُ من المالِ ما يسمحُ لنا بشراءِ الكتابينِ لأن كلاهما من الطبعاتِ الجديدةِ. هنا اقترحتْ چوليا اقتراحًا ينمُّ على كثيرٍ من الذكاءِ وأيضًا بعضِ الحبِّ لي. كتابُ "آيات شيطانية" سعرُهُ ٣٥ فلورين هولندي، نشتريه اليومَ ونقرأه، وبعد أسبوعٍ أو أسبوعين نبيعه مستعملًا في حالةٍ جيدةٍ قد يصلُ سعرُهُ ٢٥ فلورين، ونشتري

روايةَ "الحب في زمن الكوليرا" بـ ٢٠ فلورين، يتبقى لنا ٥ فلورين نشتري بهما أسطوانةً لباخ مستعملةً. تمت الخطةُ كاملةً بنجاحٍ ومتعةٍ كبيرةٍ.

الزوجُ المخادعُ

جزءٌ من المشكلةِ التي نعاني منها أنَّنا نحاول وضعَ تعاريفَ ومفاهيمَ جديدةٍ لكلِّ شيءٍ، وكأنَّ الحياةَ ما كادت تبدأ اليومَ كمولودٍ جديدٍ نبحث عن مسمًى له. نبحث عن تعريفٍ جديدٍ للوطنِ، والدينِ، والسياسةِ، والموتِ، والقتلِ، والعدلِ، والظلمِ، والحياةِ. نحلم ونتخيل ونعتقد في معنى جديدٍ، ثم نصحو ونحمل سيفَنا ونحارب ونقاتل ونجاهد من أجلِه ضدَّ الحالمين الآخرين.

هنا تَحضُرني حادثةٌ طريفةٌ. أثناء تسكعي في أوروبا، تعرفت على سيدةٍ هولنديةٍ جميلةٍ متزوجةٍ من شابٍّ مصريٍّ صاحبِ أحدِ محلاتِ الشاورما في مدينةٍ ساحليةٍ بهولندا بالقرب من ليدن. في يومٍ من الأيام، طلبت مني صديقتي أن نذهب إليها لأنها تقابل مشاكلَ مع زوجِها، ولأني مصريٌّ فتدخلي قد يقرب المسافاتِ بين الزوجين الغاضبين. سافرنا بالقطار سفرًا طويلًا، ولكن مناظرَ الخضرةِ الممتزجةِ بلون البحر الأزرق الصافي ومشاتل الزهور تملأ الطريقَ، بالإضافة للصحبة الدافئة لجوليا هونت طولَ الزمنِ

والطريقِ. قابلت الشابَّ المصري لأول مرةٍ، وهو نيليٌّ البشرةِ، جميلُ الوجهِ، رياضيٌّ الجسدِ، حلوُ الكلامِ، وأعجبت به فعلاً. أما الزوجةُ، فكنت قد تعرفت عليها سابقًا، وزاد من إعجابي بها كرمُ الضيافةِ الذي هو غيرُ مألوفٍ في هولندا. دخلنا في موضوعِ المشكلةِ، وبدأت الزوجةُ روايتَها، والزوجُ جالسٌ يستمع كحملٍ وديعٍ. قالت "عرفتُ ِعمرًا من عشرِ سنواتٍ، وتصادقنا وأحببنا بعضَنا البعضَ، فقررنا أن نعيش في بيتٍ واحدٍ كالأزواجِ. بعد سنتين، قرر هو الزواجَ بي رسميًا. رحبتُ جدًا، لكن فوجئت أنه طلب مني أن أعتنق الإسلام قبل الزواجِ. رفضت وقلت له لن أسلمَ قبل دراسةِ الموضوعِ جديًا وأقتنع اقتناعًا تامًا به. اشتريت كتبًا إسلاميةً باللغةِ الهولنديةِ، وذهبت إلى المسجدِ الوحيدِ بالمدينةِ، وصادقت مسلمةً مغربيةً علمتني كثيرًا عن الإسلامِ، وذهبت بنفسي إلى المركزِ الإسلاميِّ بأمستردام، وبعد سبعةِ أشهرٍ اقتنعت بالإسلامِ وأشهرت إسلامي بالمركزِ الإسلاميِّ في لندن، وأبلغت البلديةَ حتى يعفونني من ضريبةِ الكنيسةِ. تزوجنا وأنجبنا طفلين مسلمين رائعين، وعمرهما الآن ستٌّ وخمسُ سنواتٍ، وبدأت أنا

في تعليمهم أساسياتِ الإسلامِ حتى لا يشعروا بالغربةِ في المدارسِ". قلت لها كلامًا جميلًا وزاد إعجابي بالشابِّ المصريِّ، وسألتها: عظيمٌ كلُّ ما قُلتِيه. أين المشكلةُ الآن؟ قالت: أريد الطلاقَ الآن وفي أسرعِ وقتٍ. صدمت بطلبِها وسألتها: لماذا؟ أنا أرى أسرةً جميلةً صغيرةً لا تدميرَها. قالت: لأنه لا يُصلِّي ولا يصوم، وأنا أخشى على أطفالي منه.

هنا ثارت صديقتي چوليا وانتفضت واقفةً وطلبت مني أن أقومَ وأن نرحلَ في الحالِ واللحظةِ. حاولت أن أهدئ من روعِها، وكنا مرتبين أن نقضي الليلةَ عند الأسرةِ المسلمةِ لبعدِ المسافةِ، ولكنها رفضت رفضًا باتًا واضطررت إلى الذهابِ معها، وقضينا الليلةَ في أحدِ الفنادقِ. سألتها: لماذا ثارت هكذا وأضاعت فرصةَ مصالحةِ الزوجين الشابين؟ قالت لي: هذا الشابُّ كاذبٌ ومراوغٌ ومنافقٌ، وأنا أكدت على صديقتي عند خروجِنا أن تتمسكَ بالطلاقِ منه. خلصت الحكايةُ.

رمضان في أمستردام

بالرغم من أن صديقتي چوليا كانت ليبراليةً جدًا، إلا أنها كانت ترفض الكلامَ والنقاشَ في ثلاثةِ أمورٍ تعتقد أنها استقرت في نفسها، وهي أمورٌ لا يمكن الوصول فيها إلى قناعةٍ ماديةٍ، فمن الأفضل غلقُ النقاشِ فيها. الأمرُ الأولُ هو الإيمانُ بالأديانِ ووجودِ اللهِ، وترى أن هذا حقٌ للإنسانِ كما أملاه عليه عقلُه. الأمرُ الثاني هو المساواةُ بين الرجلِ والمرأةِ، وكانت ترى أن مجردَ فتحِ هذا الموضوعِ هو اعترافٌ ضمنيٌ بالتمييزِ. أما الأمرُ الثالثُ فهو الاعترافُ بمذبحةِ الهولوكوستِ والحقِ التاريخيِ لجماعةِ اليهودِ، بالرغم من عدمِ اعترافِها باليهوديةِ من الأساسِ أو بالأديانِ جملةً، وهذا موضوعٌ يطولُ شرحُه.

جاء رمضانُ من العامِ ١٩٨٨ في شهرِ الصيفِ، وكان النهارُ طويلًا جدًا، يبدأ بالفجرِ في الساعةِ الثانيةِ والربعِ صباحًا وينتهي عند المغربِ في الساعةِ التاسعةِ إلا الربعِ مساءً. قررت أن أقضي أسبوعَه الأولَ مع چوليا المثيرةِ، وتقدمت فعلاً بإجازةِ أسبوعٍ إلى مشرفي الألمانيِ الذي فهم عذري وهنأني بحلولِ شهر رمضانَ

بالرغم من أنه كان ألمانيًا عنصريًا جدًا. ذهبت إلى چوليا فرحبت بقدومي وسألتني كثيرًا عن عاداتي مع الصيامِ، فقلت لها لا تشغلي بالكِ، متطلباتُ الصيامِ أقلُ كثيرًا من الأيامِ العاديةِ. أحسست وكأنها أعلنت حالةَ الطوارئِ في البيتِ، امتنعت عن التدخينِ في الصباحِ حتى لا تثيرني، وبدأت في الأكلِ بالنهارِ خارجَ البيتِ بالرغم من صعوبتِه بالنسبةِ لها لأنها نباتيةٌ ولها مطاعمُ مخصوصةٌ. وقامت بتحضيرِ فطورٍ لي من الساعةِ التاسعةِ مساءً بعد شرائها كتابًا عن الأكلِ الشرقيِ وكتابَ عاداتِ المسلمينَ في رمضانَ. في النهايةِ قضيت أسبوعًا رمضانيًا روحانيًا عظيما، وهي لم تظهر أيَ تذمرٍ أو مللٍ بالرغم من إرباكي لجدولِ حياتِها اليوميِ، وأنا ممتنٌ مما فعلت.

في العامِ ١٩٩٥ كنت في مؤتمرٍ لجمعيةِ الجراحينَ المصريينَ بالإسكندريةِ برفقةِ عددٍ من الأساتذةِ الجراحينَ من نجومِ الطبِ بالزقازيقِ. في اليومِ الثاني للمؤتمرِ وبعد انتهاءِ جدولِ أعمالِه، دعانا أحدُ الأساتذةِ لقضاءِ باقي اليومِ والمبيتِ بشاليهٍ له في الساحلِ الشماليِ. رحبنا بالفكرةِ للخروجِ من جوِ العلمِ والطبِ والتكلفِ المعتادِ في هذه الظروفِ. ذهبنا وقضينا وقتًا ممتعًا في التحدثِ

والنميمةِ المعتادةِ، وسألني أحدُ الأساتذةِ عن رأيي في الزقازيقِ وتأثيرِ الجامعةِ على فكرِ وثقافةِ المجتمعِ، فقلت له ليس لها أيُ تأثيرٍ، الجامعةُ لا تزيد عن مدرسةٍ لتلقينِ العلومِ ليس أكثرَ، والدليلُ على ذلك أنني كنت أمر ذاتَ يومٍ بشارعِ فاروقَ فمررت على مولدِ أبو خليلٍ وشاهدت الزحامَ الشديدَ والسياراتِ الفخمةَ الفاخرةَ خارجَ المولدِ، وعرفت أن بعضَ أساتذتنا في الكليةِ وفي الجراحةِ بالذاتِ من مريديه، فأيُ تأثيرٍ للجامعةِ والعلمِ على هذا المجتمعِ مع استمرارِ هذه الشعوذةِ والجدلِ. ما أن قلت ذلك حتى هاج وثار أحدُ الأساتذةِ، وكنت لا أعلم أنه من مريدي الشيخِ أبو خليلٍ، وسب ولعن بل واتهمني بالكفرِ والزندقةِ بسبب أقوالي. ترك الجلسةَ وترك القريةَ الساحليةَ الجميلةَ بمفرده وهو في حالةِ غضبٍ، وتوترت علاقتنا لسنواتٍ فيما بعد. هنا تذكرت المبدعةَ چوليا وهي الملحدةَ وكيف تقبلت إيماني بديني وقيامي بطقوسِه بمنزلِها وأحترمت ذلك بل شاركتني الإحساسَ به، ولُمت نفسي أنني لم أُقدِر ما يؤمن به أحدُ أساتذتي وتهكمت على معتقدِه بالرغم من أننا من نفسِ الثقافةِ ونفسِ الديانةِ.

الفخذ المشوي

على قدرِ الفراغِ الذي تشغلهُ في العالمِ تكونُ حياتُك، فلا تفرحْ بعالمٍ كبيرٍ لا تستطيعُ أن تشغلهُ بجسدِك أو عقلِك. حتى أصغرِ الأشياءِ قد تحملُ في داخلِها أجملَ ما في الدنيا من معاني الجمالِ والروعةِ. لا تنهزمْ أمامَ فكرِ مجتمعٍ ينجرفُ في بحرٍ متلاطمِ الأمواجِ لا شطَّ له ولا مرسى. كان هناكَ خلافٌ كبيرٌ بيني وبينَ چوليا فيما يتعلقُ بنظرةِ كلٍّ منا إلى اليهودِ ومذابحِ الهولوكوستِ. هي ترى أنَّ هناكَ أبرياءَ حُرقوا وقُتلوا ولا يعنيها إنْ كانت ديانتُهم يهوديةً أو غيرَها وما إنْ كان قادتُهم فاسدينَ مخربينَ. هي تنظرُ لشئ بشعٍ بكلِّ معاييرِ الحياةِ، لا يصحُّ أن تبحثَ عما يبررهُ. أما أنا فكنتُ "في ذلكَ الحينِ" أرى أنَّ تاريخَ اليهودِ وأنبيائِهم وقادتِهم تاريخٌ أسودُ، وأنهم قتلوا المسيحيينَ والمسلمينَ، وأنهم يعيثونَ في الأرضِ فسادًا. حملتُ على نفسي تاريخَ العالمِ كلِّه، قصصَه وخرافاتِه، لأفسر جريمةً بسيطةً قُتلَ فيها مدنيونَ سُذَّجٌ لمجردِ أنهم يعتنقونَ خرافةً غيبيةً. كان هذا الخلافُ الغريبُ يجعلني أحملُ داخلي بعضَ

الإحساسِ بالغصةِ تجاهَها حتى حدثَ أنْ كان عيدُ الأضحى المباركُ، وهي تعلمُ أنني أعيشُ وحيدًا وليس لي أصدقاءُ من العربِ أو المسلمينَ في البلدةِ التي أقطنُها في شمالِ ألمانيا. وجدتها تتصلُ بي لتعلمني أنها ستحضرُ لقضاءِ عطلةِ آخرِ الأسبوعِ معي. فرحتُ بالزيارةِ وأعددتُ لها العدةَ المعتادةَ من مأكلٍ ومشربٍ وبعضِ أسطواناتِ الموسيقى الراقصةِ والبوبِ والجازِ. فوجئتُ بالزائرةِ الذكيةِ الجميلةِ تحملُ معها العديدَ من الأشياءِ، وإذا بي أفاجأُ بأنها أحضرتْ لي فخذًا مشويًا لخروفٍ مع الأرزِ والسلطاتِ العربيةِ. تعجبتُ وسعدتُ بتصرفها وفهمتُ منها أنها ذهبتْ يومَ العيدِ إلى إحدى المجازرِ الإسلاميةِ في شمالِ أمستردام لتشتريَ اللحمَ المذبوحَ للأضحيةِ على الطريقةِ الإسلاميةِ، وأنَّ أحدَ المسلمينَ اللبنانيينَ وكان يعرفُها جيدًا ويعرفُ أنها على الأقلِ ليستْ مسلمةً أعطاها هذه الفخذَ أضحيةً بلا مقابلٍ وتكفلَ بطهيهِ وأضافَ الأرزَ والسلطاتِ وهو لا يعلمُ إلى أينَ ستأخذُ هذه الأشياءِ. چوليا الملحدةُ النباتيةُ أتتْ بعملٍ صغيرٍ بسيطٍ لم تراجعْ عقلَها ولا قراءتَها في التاريخِ عن تاريخِ المسلمينَ أو تاريخِ الذبحِ أو قصتهِ

وأحكامهِ. تُرى من كان الطفلُ أهو إسحاقُ أم إسماعيلُ؟ تُرى هل يجوزُ أن يتصدقَ مسلمٌ ببعضِ الأضحيةِ لغيرِ المسلمِ؟ خجلتُ أن أراجعَ هذه الأمورَ معها، ولكن أعددتُ لها العشاءَ النباتيَّ من البطاطا المسلوقةِ وبعضِ اللوبيا البيضاءِ المطبوخةِ في الزيتِ النباتيِّ وزجاجةِ النبيذِ الأبيضِ المثلجِ، وهجمتُ أنا على الفخذِ المشويِّ ألتهمُه مع موسيقى أم كلثومَ وأغنيةِ "أنتَ عمري" التي جعلتني أعيشُ ثانيةً حياةَ الشرقِ بلا قيودِه ولا تعقيداتِه، وأيضًا دون الخروجِ عن حدودِه. ما زلتُ أستشعرُ طعمَ اللحمِ السمينِ بينَ ثنايا أسناني وفي لزوجةِ شفتيَّ.

كيف تقول لا

يوم عيد ميلادِي الواحدُ والثلاثونَ، وكان ذلك في ربيعِ ١٩٨٨، دعتنِي چوليا لقضاءِ هذا اليومِ في أمستردامَ. هي بطبيعتِها المستقلةِ كانت تكرهُ الألمانَ وعنصريتهم وغرورهم، وترى أن الأيامَ الجميلةَ من الأفضلِ أن تكونَ بعيدةً عن الوجوهِ الجادةِ العابسةِ. بدأ اليومُ لطيفًا في جوٍّ باردٍ لكنه صافٍ، ولكن سرعانَ ما تواترت أحداثٌ غريبةٌ أكثرُ منها سعيدةٌ. دعتنِي للغداءِ في أحدِ المطاعمِ متوسطةِ المستوى، كونها نباتيةً ترى أنها يجبُ ألا تضطرَ إلى دفعِ مبالغَ كبيرةٍ في المطاعمِ الفخمةِ من أجلِ وجبةٍ نباتيةٍ رخيصةٍ. لحظاتٍ بعد طلبِنا الوجبةَ، حضرَ رجلٌ أنيقٌ مع امرأةٍ تبدو أنها زوجتُه أو حبيبتُه وجلسا على المنضدةِ المجاورةِ لنا. أمعنت چوليا النظرَ في وجهِ الرجلِ، ثم احمرَّ وجهُها وقالت لي: "يجبُ أن نتركَ هذا المطعمَ ونرحلَ في الحالِ." نظرتُ إليها بشكٍّ وارتباكٍ وسألتُها: "ماذا وراءَ هذا القرارِ؟" رفعت صوتَها متعمدةً أن يسمعَها الرجلُ الأنيقُ: "هل تعرفُ من هذا بجوارِنا؟ إنه وزيرُ المساعداتِ

الأوروبيةِ، قاتلُ أطفالِ أفريقيا ومن مجرمي الحربِ وسياسةِ السوقِ الحرةِ.” أثار صوتُها العالي سخطَ زوارِ المطعمِ، ونظروا إليها باستياءٍ كأنها مريضةٌ نفسيةٌ خرجت عن وعيِها. أتى الجرسونُ مسرعًا وحاول أن يهدئَ من روعِها وترجاها أن تخفضَ صوتَها، لكنها تمادت وقالت بصوتٍ عالٍ: “لا يشرفني أن أجلسَ في مطعمٍ به هذا القاتلُ. طَلبتْ من الجرسونِ حسابَ المشروباتِ وأن يلغيَ طلبَ الأكلاتِ ولا يأتيَ بها. قام الرجلُ الأنيقُ من مقعدِه واقترب بحرصٍ من چوليا وقال لها: “لا تزعجي نفسَكِ سيدتي الصغيرةَ، يمكنكِ أن تستمري أنتِ وصديقُكِ في قضاءِ وقتِكم، وسنترك نحن المطعمَ ونحن آسفونَ على إزعاجِكم.” قامت السيدةُ المرافقةُ له واقتربت منه وسحبته من ذراعِه وخرجوا من المطعمِ يتبعهم الجرسونُ دون كلمةٍ واحدةٍ سوى أنه فتح بابَ المطعمِ الزجاجيِّ حتى خرجت السيدةُ يتبعها الرجلُ الأنيقُ. طوال هذه الدقائقِ ظللت جالسًا في مقعدي لا أتحركُ ولا أنطقُ بكلمةٍ، وبي مزيجٌ من شعورِ الحرجِ لما تفعله چوليا وشعورٍ بالفخرِ من قدرتِها على مواجهةِ رجلٍ في حجمِ وزيرٍ بكل هذه القوةِ والجرأةِ. بعد انصرافِ

الرجلِ ورفيقتِه، جلست چوليا ثانيةً ثم طلبت من الجرسونِ أن يأتيَ بالأكلاتِ وكأن شيئًا لم يكن رغم أن جسدَها بدا مرتعشًا متوترًا. صَمتُ دقائقَ ثم ناولتُها كوبًا من الماءِ حتى تسكنَ وتهدأَ من روعِها. ساد المطعمَ كله جوٌّ من الكآبةِ والصمتِ حتى رجوتُها أن تسرعَ في أكلِها لنخرجَ من هذا الجوِّ. دفعت چوليا الحسابَ ثم خرجنا إلى الجوِّ الباردِ الذي لطف كثيرًا من حرارةِ مشاعرِنا، وقررت أن أدعوَها لمشاهدةِ فيلمٍ أمريكيٍّ جديدٍ عن الحربِ الفيتناميةِ في إحدى دورِ السينما. في الطريقِ الطويلِ إلى السينما، طلبت من چوليا أن تقصَّ لي حكايةَ هذا الرجلِ الوسيمِ الأنيقِ الذي ناله كل هذا الإحراجِ من الشابةِ العنيدةِ. قالت چوليا إن العامَ الفائتَ حصل انخفاضٌ شديدٌ في كميةِ الألبانِ الموردةِ إلى السوقِ الأوروبيةِ نتيجةَ إضرابِ الفلاحين في إسبانيا وعدم قدرةِ إسبانيا على توريدِ حصتِها إلى السوقِ، مما كان يهدد بارتفاعِ أسعارِ الألبانِ في دولِ أوروبا كلها حتى تطوع هذا الوزيرُ بإعلانِ أن هولندا تستطيع أن تزيدَ من حصتِها للسوقِ لتعوِّضَ عجزَ إسبانيا. بعد شهورٍ من هذا الحدثِ، استطاعت إحدى الصحافياتِ أن تتوصلَ إلى حقيقةِ أن سدادَ هذا

العجزِ أتى من توريدِ أطنانٍ من الألبانِ الجافةِ كان مخططًا ضمن اتفاقِ إرسالِها إلى ثلاثِ دولٍ في وسطِ أفريقيا تعاني من جفافٍ ومجاعاتٍ. صحيح أن الوزيرَ استقال من منصبِه بسبب هذا الموقفِ، ولكن لابد أن يظل ملطخًا بعارِ هذه الصفقةِ. تجادلنا حول أسلوبِ المواجهةِ والإحراجِ الذي سببته للرجلِ في حضورِ رفيقتِه، وكان من الممكن أن تكونَ أكثر لطفًا في مواجهتِه على الملأِ. لم يعجبها رأيي وانتهى الموضوعُ عندما وصلنا إلى السينما وانغمرنا في أحداثِ هذا الفيلمِ المثيرِ للجدلِ. بعد ثلاثةِ أيامٍ وصلني بالبريدِ كتابٌ من چوليا عنوانُه "كيف تقول لا"، وفوجئت أنه أخذ جائزةَ "أكثر الكتب مبيعًا في العالمِ" منذ سنتين.

الجنةُ البعيدةُ

مازلنا في ذكرى ذلك اليومِ عيدِ ميلادي الواحدِ والثلاثينَ. بعدما خرجنا من المطعمِ بأحداثهِ المثيرةِ مع الوزيرِ القاتلِ السابقِ، ارتجلنا إلى السينما تلبيةً لدعوتي لمشاهدةِ فيلمٍ أمريكيٍ يعرضُ في جميعِ دورِ العرضِ في أوروبا. الفيلمُ اسمه كروكودايلُ ويقصُ حكايةَ ثلاثةِ جنودٍ أمريكانَ عائدينَ لوطنهم من الحربِ الفيتناميةِ. القصةُ الأولى تظهرُ أن المشاعرَ الإنسانيةَ في غايةِ التعقيدِ وليس هناك أي معاييرَ لتقييمها أو حتى فهمها، وأكثر من ذلك فهي غيرُ ثابتةٍ أو واضحةٍ، وإنما هي هلاميةٌ تتشكلُ وتتغيرُ بلا أي ثوابتَ. بطلُنا الأولُ الصغيرُ السنِ الرقيقُ المشاعرِ كان جنديَ مشاةٍ في موقعةٍ حربيةٍ محدودةٍ على الحدودِ الشماليةِ في قريةٍ نائيةٍ، أتت المعركةُ على معظمِ سكانها وهرب الآخرون إلى الحدودِ، وتحولت عششُ الفلاحين إلى رمادٍ. وما أن سكنت أصواتُ البنادقِ والمدافعِ وفاحت رائحةُ الدخانِ مختلطةً بالدمِ ولحمِ البشر، حتى أصيب بطلُنا بلوثةٍ لا يصدقُ أنه كان له يدٌ في صناعةِ كلِ هذا الدمارِ الذي لا يستقيمُ مع طبيعتهِ الغضةِ. لم يتساءل لماذا فعل هذا، ولكنه

شعر أنه لم يفكر فيما يفعل كما عاش طوالَ سنواتِ عمرهِ القليلةِ. قرر الهروبَ من جوِ المعركةِ لأيامٍ وذهب بمفرده إلى قريةٍ مجاورةٍ لم تنلها الحربُ، ودلف إلى أحدِ محلاتِ البقالةِ ليحصل على ما يطفئُ جوعه وعطشه. وجد منضدةً صغيرةً وضيعةً تجلس عليها فتاةٌ فيتناميةٌ جميلةٌ صغيرةُ الحجمِ، فهم من نظرتها المرتاعةِ إليه في زيه العسكري أنها هاربةٌ من القريةِ المدمرةِ. انتابه شعورٌ قويٌ ليربتَ على كتفها أو حتى يحتضنها معبراً لها عن مواساته لها أو أسفه لما حدث لقريتها وما قد يكون حدث أيضاً لأسرتها. انتقلت هذه المشاعرُ إلى وجدانِ الفتاةِ، فشعرت بنوعٍ من الارتياحِ والسكينةِ ولمعت عينيها بنوعٍ من الرضا، سمحت له أن يطمئن لأن يجلس بجوارها ويمسح بيده على خدها الصغير. مرت أيامٌ نشأت بينهم علاقةُ حبٍ عميقةٍ، شعر بها الجندي أنها قد تُكَفِر عما قد اقترفه من ذنبٍ تجاه هذه الفتاةِ المنكوبةِ. شعرت الفتاة أن هذا الجندي هو طوقُ نجاةٍ لها ليخرجها من دمارِ بلادها إلى الحياةِ الفسيحةِ المترفةِ إذا رحلت معه إلى أمريكا. تزوجا وعادا إلى الجنةِ البعيدةِ على ضفافِ الأطلسي. نسيت الفتاة كل ما حدث في بلادها وانبهرت بهذا العالمِ الجديدِ، ورغبت أن تجولَ وتصوّلَ

وتمتعَ عينيها بكل شبرٍ على الأرضِ المضيئةِ. أعمتها المعيشةُ الجديدةُ عن رغباتِ الزوجِ الرقيقِ، وتمردت على هدوئه وسكونه وميوله إلى الحياةِ الرومانسيةِ التي كان يرى سابقاً فيها بساطةَ هذه الفتاةِ البريئةِ العذراءِ جسداً ومشاعراً. أسودت الحياةُ في عينيه واستمتع بهذا العذابِ الأسودِ لأنه رأى فيه تكفيراً لذنوبه وتطهيراً لجسده مما ارتكبه في الحرب. عاش كلٌ في حياته كأنهما ولدا من جديدٍ بعيدين متنافرين. اختلفت أنا وچوليا في تحليلِ الموقفِ برمته، كنت كشرقي أرى أن هذا الجندي دفع ثمناً باهظاً لخطأٍ لا يد له فيه سوى أنه جنديٌ لا يملك أن يرفض أو يقبل أن يقتل الآخرين. چوليا ترى أنه ليس هناك مبررٌ لقتلِ الإنسانِ سواء كرهاً أو طواعيةً، وكونه قتل أبرياءَ فلا ضرار من قتله حتى لو كان بريئاً. غلبتني مشاعري وكدت أبكي من أجل الجندي الصبي. تمرد عقلُ چوليا على استخفافِ المؤلفِ للمشاهدِ ومحاولةِ إقناعه بأن الأمريكان دفعوا ثمناً باهظاً لقتلهم الشعوبَ ذات العيونِ الضيقةِ، وهذا يكفي ألا يلومهم أحدٌ وأن تتناسى البشريةُ هذه الهفواتِ العارضةِ.

شهرزاد

من منا يستطيع أن يفسر ما يحدث في العالم اليوم؟ غموضٌ، متناقضاتٌ، كذبٌ، خداعٌ في كلِّ شيءٍ. أيُّ مؤرخٍ يستطيع أن يسطر هذا الحاضر بصدقٍ أو واقعيةٍ أو من خيالهِ و أوهامهِ؟ هذا أمرٌ يجعلني أتعجب ممن يؤمنون بما كتب عن الماضي وتاريخه، وأسخر فعلاً ممن يعيشون في قصص الماضي وحكمه كأن ما كتب هو الحقيقة المطلقة. كيف يصدق هؤلاء الناس قصصًا وحكاياتٍ لا تتوافق مع العقل والمنطق؟ هذا هراءٌ.

اعتدت أنا وچوليا أن نناقش بعض الكتب التي قد نكون قد قرأناها في ليالي الصفاء، وخاصة تلك التي تتناول تاريخ الإمبراطوريات القديمة. هذه الكتب بالذات كانت المحببة للشباب في أوروبا في زماننا. كان هناك اختلافٌ كبيرٌ في تقديرنا لهذه الكتب. هي، برغم رقتها وأنوثتها، لا تبدي أيَّ انفعالٍ إنسانيٍّ مما تقرأ. لا تنتقد أو تنفعل، هي تقرأ كأنها تقرأ كتابًا علميًا بحتًا يحمل معلوماتٍ قيمةً فقط للإدراك وليس للنقد أو للعظة، بينما كنت أنا أكثر انفعالًا

وتأثرًا بما أقرأ وكأنني أدافع عن كتبٍ منزلةٍ من السماء. كانت تسخر كثيرًا من تأثري الشديد في تفسير بعض مواقف التاريـخ.

في ليلة صيفٍ نديٍّ جميلٍ، لعبت چوليا معي بخبثٍ شديدٍ وبدون وعيٍ مني دور شهرزاد. الأضواء خافتةٌ، وموسيقى هادئةٌ تأتي من الركن البعيد من غرفة النوم، ورائحةٌ مثيرةٌ تنتشر في هواء الغرفة. فتحت معي قصة كتابٍ كنا قد قرأناه سويًا عن محرقة الهولوكوست، وكانت من الموضوعات المحرمة في أوروبا كافة، وفي ألمانيا وهولندا بالذات. كانت تعلم رأيي في عدم تصديقي بعدد الملايين الذين أُحْرِقوا في هذه الكارثة. تحت تأثير المؤثرات الحسية الشاعرية حولي من أصواتٍ وأضواءٍ وروائحٍ مثيرةٍ، أصبحت أصدق كل ما تقول وأصادق عليه، وأيدت كل ما حاكته حتى أقنعتني برأيها. ولو أعطيت حينها قلمًا وقرطاسًا لأكتب تاريـخ محرقة اليهود، لكتبته كما رويته هي بالكمال والتمام. كان جميلًا ألا أثير صراعًا فكريًا ينغص علينا الساعات الجميلة. لا يساورني الشك أن التاريـخ كتب في ظروفٍ مشابهةٍ لظروفي، وكل كاتبٍ كان متأثرًا بشهرزاد الخاصة به، فأصبح هناك عدة قصصٍ ورواياتٍ لنفس الحدث

بسبب اختلاف الأصوات والروائح والمشاعر. أدعوكم لقراءة التاريـخ بمشاعر أكثر جمالًا وإحساسًا، وستجدونه دائمًا مختلفًا ورائعًا.

إنتصارٌ أحمقٌ

وكأنَّ چوليا قد قرأتْ كُتيِّبَ دليلِ الحياةِ قبلَ أنْ تأتيَ إليها. حياتُها بسيطةٌ وواضحةٌ، قراراتُها قصيرةٌ وحادةٌ، لا تناقشُها ولا تراجعُها، قليلةُ الجدالِ، متواضعةٌ وغيرُ ناقمةٍ. هي لم تراجعْ قطُّ موقفَها من عدمِ الزواجِ، قرارٌ أخذتْهُ في عمرِ الثانيةِ والعشرينَ، وتصورتْ حياتَها كاملةً وحيدةً بدونِ أسرةٍ، وأعجبَها هذا التصورُ ورتبتْ حياتَها على الوحدةِ حتى لو استمرتْ ستونَ عامًا كاملةً. موقفُها من الدينِ كان أعجبَ، قالتْ لي إنَّ البشر على مجموعِهم وعلى تاريخِهم لم يحلوا هذه المعضلةَ ولم يقروا بشيءٍ واحدٍ فيه، وأنا أقلُّ ذكاءً وحكمةً من أن أقرَّ فيه أيَّ قرارٍ، فتركتُ الموضوعَ برمتهِ. كانت نباتيةً لأنها كانت تحبُّ الحيواناتِ والطيورَ، ولا يمكنُ أن تصادقَهم يومًا ثم تأكلَهم في اليومِ التالي. تمكنتْ من التغلبِ على قهرِ ثقافةِ المجتمعِ، فبدتْ غريبةً قويةً وجذابةً. منذ بدايةِ علاقتِنا في العامِ ١٩٨٨، لم تطلبْ مني شيئًا واحدًا لها من قناعةٍ أنَّ ما لا تملكهُ لا تريدهُ، وأنها في غنىً عما لا تستطيعُ توفيرَهُ بنفسِها. هذه

القناعةُ منحتْها حريةً جعلتْها تبدو كنسمةٍ رقيقةٍ لمن يعرفُها. كانت متحفظةً جدًا من صداقتِي بعبدِ الرحمنِ الذي يدرسُ جراحةَ العيونِ في نفسِ المشفى الذي أعملُ فيه. الرجلُ متزوجٌ ولديه ٤ أطفالٍ، ويقطنُ في شقةٍ مثل القصر، وهذا غريبٌ جدًا في ألمانيا. لم يعُجبْ عبدُ الرحمنِ بجمالِها أو جسدِها، وإنما هزمَهُ حريتُها وبساطتُها وثقتُها. لم يستطعْ أن يهدمَ هذا الحاجزَ معها، وهو المتحفظُ المغرورُ بقناعتهِ وتحفظهِ وأسرتهِ ودينهِ. طلبتْ منه ألا يشغلَ نفسَهُ بأمرِها، فالحياةُ ألوانٌ وأشكالٌ وبشرٌ عجيبٌ مختلفٌ في عجبهِ. لم يقتنعْ بهذا حتى كانت ليلةً ذهبنا فيها إلى حفلِ عيدِ ميلادِ أحدِ أطفالِ عبدِ الرحمنِ بمنزلِه. تعمدَ أن يضعَ في وسطِ طاولةِ الطعامِ أرنبًا جبليًا مشويًا كبيرَ الحجمِ وبعضَ الدجاجِ المشويِّ الكاملِ، مما أثارَ حفيظةَ چوليا أن ترى أصدقاءَها في هذه الحالةِ. تمالكتْ نفسَها وأخذتْ بعضًا من المكرونةِ البيضاءِ والسلطةِ الخضراءِ وذهبتْ لتجلسَ في جانبٍ بعيدٍ من الغرفةِ. أدركَ عبدُ الرحمنِ الموقفَ، فثارتْ في نفسِه نشوةُ انتصارٍ أحمقَ، وذهبَ ليجلسَ بجوارِها ليناقشَها في هذا الأمرِ، ولماذا لا تأكلُ

اللحومَ وهي شهيةٌ لذيذةٌ، ولماذا لا تأخذُ من الحياةِ ما لذَّ وطابَ، ولماذا لا تتزوجُ، ولماذا لا تؤمنُ باللهِ، وصالَ وجالَ في حواراتٍ فلسفيةٍ عميقةٍ ومعقدةٍ، وهي لا تردُّ عليه بل تنظرُ إليه بهدوءٍ وغرابةٍ. وما أنْ صمتَ حتى سألتهُ سؤالًا واحدًا: كم من البشرِ يفعلُ ما تفعلهُ ويقتنعُ بما تقتنعُ به ويقولُ ما تقولُهُ أنت؟ قال لها: ملياراتُ البشر، بل أغلبُ البشر فقالتْ له: ما يضيرُك أن هناك واحدةً مختلفةً، اعتبرْها شاذةً، اعتبرْها مختلفةً، لماذا كلُّ هذا الاهتمامِ بأمرِها؟ ليس إلا لأنك غيرُ واثقٍ في فكرِك ولا معتقدِك ولا أفعالِك. أنت تضعُ نفسَك تحتَ اختبارٍ وصراعٍ مع كلِّ من يختلفُ معك. ستعيشُ هذا الصراعَ الوهميَّ طالما حييتَ. من لم يسكنْ داخلَ ذاتِه لن يكفيَهُ كلُّ الآخرينَ سكنًا له.

يوتوبيا الماضي

نحنُ أبناءُ زمانِنا ومكانِنا نكتسبُ مفاهيمَنا وقيمَنا مما عاصرْنا ورأينا وأحسسْنا. لا حيلةَ لنا أن نعيشَ حياةَ الآخرين أو زمانَ السابقين أو مكانَ القاصين. نبدأ حياتَنا داخلَ سجنِ الجيناتِ ومعتقلِ الموروثاتِ وقيودِ التربيةِ، فإذا ما كبرْنا وتحررْنا وخرجْنا من ظلامِ المحبسِ الصغيرِ إلى ردهةِ السجنِ الأكبرِ اعتقدْنا أننا امتلكْنا الكونَ ووعينا الحكمةَ واكتشفْنا الحقيقةَ الغائبةَ وقبضْنا على ناصيةِ مصيرِنا. ثم يقتربُ الموتُ فتنجلي الغيومُ عن الخدعةِ الكبرى ونستسلمُ لسنةِ الكونِ صاغينَ كما بدأْنا حياتَنا صاغينَ.

ما زلتُ أتذكرُ يومَ ٨,٨,١٩٨٨، فرقمُ ٨ هو رقمُ السعدِ عندَ الصينيين. في الليلةِ السابقةِ لهذا اليومِ اتصلتْ بي چوليا لتدعوني للذهابِ إلى أمستردام لحضورِ الاحتفالِ الكبيرِ الذي سوف تحييهِ الجاليةُ الصينيةُ في هولندا في الحيِّ الصينيِّ، وهو احتفالٌ متوقعٌ أن يكونَ ضخمًا للغايةِ لأن هذا التاريخَ لا يتكررُ سوى كلِّ مائةِ عامٍ. حاولتُ الاعتذارَ لأنني كنتُ قد دعوتُ صديقي الهنديَّ روشان

للغداءِ في هذا اليومِ. ألحتْ چوليا وقالتْ لي إنها ترحبُ أيضًا بروشان ضيفًا عليها للتعارفِ عليه.

روشان شابٌّ هنديٌّ سيخيُّ الديانةِ، إنسانٌ في غايةِ الأدبِ والخجلِ وعقليةٌ علميةٌ فذةٌ، وحضر إلى ألمانيا بدعوةٍ من قسمِ الكيمياءِ الحيويةِ لعرضِ بحثٍ مميزٍ نشرهُ عن استخدامِ مسيلاتِ الدمِ الحديثةِ. تعرفتُ عليه في كافتيريا المستشفى ونشأتْ بيننا صداقةٌ سريعةٌ ظلتْ تربطنا لسنواتٍ عديدةٍ فيما بعد. عرفتُ منه كثيرًا من خبايا ديانةِ السيخِ ورِقَّتها وقِيَمَها. قابلتُه في صباحِ يومِ ١٩٨٨-٨-٨ وعرضتُ عليه دعوةَ چوليا فرحبَ جدًا ووجدها مناسبةً تستحقُ المشاركةَ.

أخذنا القطارَ من إسن إلى أمستردام وفي ميدانِ المحطةِ الرئيسيةِ شاهدنا منظرًا لن تنساهُ عيناي. عشراتُ الآلافِ من البشرِ متظاهرينَ في ميدانِ المحطةِ يرفعون يافطاتٍ تحملُ أعلامَ الولاياتِ المتحدةِ ملطخةً بعلاماتِ الاستنكارِ والشجبِ والرفضِ. المتظاهرون كلهم رجالٌ ولكن أشكالهم وملابسهم غريبةٌ، بعضهم يلبسُ زيَّ النساءِ وبعضهم يضعُ أحمرَ الشفاهِ. خرجنا من وسطِ

هذا الزحامِ بأعجوبةٍ وأنا أتساءلُ من هؤلاءِ البشرِ الغرباء؟ أشكالهم لا تبدو صينيةً وسلوكهم غريبٌ.

قابلنا چوليا في الشارعِ المقابلِ لمحطةِ الباصاتِ حيث اعتدنا أن نتقابلَ وسألتُها عن هؤلاءِ المتظاهرين وسرِّ تظاهرهم، فقالتْ لي إنهم الشواذُّ جنسيًا يقومون بمظاهرةٍ تضامنًا مع أمثالهم في الولاياتِ المتحدةِ شجبًا لموافقةِ الكونجرسِ على قرارِ رئيسِ أمريكا بمنعِ الشواذِّ من الالتحاقِ بالجيشِ. ضحكتُ كثيرًا حتى استغربتْ چوليا معلقةً أنهم أصحابُ قضيةٍ ومن حقهم أن يعبروا عن رأيهم، بينما تعجبَ روشان من الموقفِ وعلقَ بأن الأمرَ لا يهمه في شيءٍ ولا يثيرُ لديه أيَّ مشاعرٍ.

تركنا الميدانَ والمتظاهرين وذهبنا إلى الحيِّ الصينيِّ لنفاجأَ باحتفالٍ لم أرَ في حياتي مثلَ بهرجته وروعته. موسيقى وأغانٍ ورقصٌ وقبلاتٌ ومأكولاتٌ ومشروباتٌ في كلِّ مكانٍ بلا مقابلٍ واختلاطُ رجالٍ ونساءٍ. أخذتني الصدمةُ من هذا الكمِّ من التحررِ والخروجِ عن كلِّ قواعدِ الأصولِ والقيمِ والتقاليدِ حتى تحولَ رفضي لما يحدثُ إلى إحساسٍ بالضيقِ والاختناقِ، وتعجبتُ أكثر من اندماجِ

روشان البسيطِ الحيِّ في الاحتفالِ حتى شاهدتُه يسرقُ بعضَ القبلاتِ من فتياتٍ صينياتٍ من هنا وهناك.

ضاقتْ چوليا من موقفي السلبيِّ تجاه الاحتفالِ وشعرتْ بالذنبِ تجاهي لدعوتها لي، وفي نفس الوقت تعجبتْ من تصلدي وعدمِ قبولي لفكرِ وتقاليدِ الآخر. بل أكثر من ذلك، أنها رأتْ أن هؤلاءِ الصينيين استطاعوا تحويلَ رقمِ ٨ الجافِّ إلى حياةٍ وفرحةٍ وسعادةٍ، بينما أنتم العربُ تبحثون عن وهمِ يوتوبيا الماضي وتَدعَون أنكم تبحثون عن الحقيقةِ الغائبةِ الموجودةِ في زمانٍ ومكانٍ لم يعودا موجودين في الواقع.

مأساةٌ حقيقيةٌ

منذُ القِدَمِ والبشريةُ تعرفُ علومَ الطبيعةِ الأربعةَ، يأتي أولُها الرياضياتُ البحتةُ ثم الكيمياءُ ثم الفيزياءُ وأخيرًا البيولوجيا. علومٌ واضحةٌ صريحةٌ ممتعةٌ تفسر الطبيعةَ والأحياءَ وإلى حدٍّ كبيرٍ الحياةَ. ولكن لأن العقلَ البشريَّ غبيٌّ وثائرٌ ومتمردٌ ويلهثُ وراءَ ما يعتقدهُ حقيقةً غائبةً، راحَ يبحثُ فيما خارجَ الطبيعةِ ويجري وراءَ الميتافيزيقيا، تارةً يسميها فلسفةً أو دينًا وتارةً يسميها نجومًا أو فلكًا أو وحيًا بلا طائلٍ. ثم اخترعَ ما يسمى علمَ الاجتماعِ في محاولةٍ يائسةٍ لتجميلِ نفسهِ وتمييزهِ عن الحيوانِ، ثم يدعي علومًا أخرى مثلَ الفنونِ والآدابِ والعلومِ الإنسانيةِ، ثم يجملُ حكمهُ فيأتي بالحرياتِ وحقوقِ الإنسانِ وعدمِ التمييزِ العنصريِّ بين البشرِ.

في العامِ ١٩٨٩ وفي إحدى سهراتِ السمرِ مع بعضِ الأصدقاءِ الهولنديين، اندفعنا إلى الكلامِ في السياسةِ، وكان هذا العامُ هو عامُ سقوطِ سورِ برلين وعودةِ الوحدةِ الألمانيةِ. وكان بيننا مستر فولفجانج وهو ألمانيٌّ ليبراليٌّ متفتحٌ مثلنا، وأثنى على هدمِ السورِ

وعودةِ ألمانيا العظمى، بينما كانت صديقتي چوليا وهي مثقفةٌ ملحدةٌ تعملُ بالعملِ الإنسانيِّ تخوفت من كلامِ هذا الألمانيِّ المتعجرفِ. حاولتُ أن أجاملها وأخطأتُ خطأً كبيرًا عندما ذكرتُ كلمةَ هولوكوست وأن هذا الطابو الكاذبَ لن يجعلَ ألمانيا حرةً مرةً أخرى وسوف يجعلها تحت سياطِ الفكرِ الدينيِّ اليهوديِّ مدى الحياةِ. بمجردِ ذكرِ كلمةِ الهولوكوست سادَ صمتٌ رهيبٌ وتوترَ جوُّ الجلسةِ وضاقَ الأصدقاءُ من وجودي بينهم حتى چوليا أظهرت امتعاضًا واضحًا وعيناها تنظرُ للآخرين بشيءٍ من الأسفِ والاعتذارِ عن خطأ صديقها من العالمِ الثالثِ. مرت باقي السهرةِ في صمتٍ حتى افترقنا وأحسستُ أنه من غيرِ المناسبِ أن أكملَ ليلتي مع چوليا وقررتُ العودةَ إلى ألمانيا. مر أسبوعان في صمتٍ حتى جاءني اتصالٌ من چوليا تدعوني إلى زيارتها وقضاء عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ معها. ذهبتُ إليها وأنا معتقدٌ أن الوقتَ قد أنساها ما قد اعتقد أنه خطأٌ مقدسٌ وأن الشوقَ فوقَ أي اعتباراتٍ تاريخيةٍ أو إنسانيةٍ أخرى. يبدو أنني كنتُ ما زلتُ حبيسَ الفكرِ الشرقيِّ التقليديِّ فقد وجدتُ في ضيافتها فراو آن وطفليها لقضاء عطلةِ الأسبوعِ معنا.

من هي فراو آن؟ هي رئيسةُ جمعيةِ مناهضةِ العنصريةِ في هولندا كلها. هذه قصةُ حياتها. فراو آن من جذورٍ بولنديةٍ يهوديةٍ واندمجت في العملِ السياسيِّ ثم العملِ الإنسانيِّ ومناهضةِ العنصريةِ. أثناء دراستها في الجامعةِ صادقت طالبًا زنجيًا من أوغندا وعاشا سويًا في منزلٍ في لاهاي لعدة شهورٍ حتى إذا أحست أنها حاملٌ منه اختلقت مشاكلَ كبيرةً أدت إلى انفصالهما دون أن يعلمَ أنها حاملٌ منه. عندما قَرُبَ موعدُ ولادتها ذهبت إلى روتردام ووضعت هناك طفلها الذي جاء مثلما تمنت أسودَ اللونِ. تركت الطفلَ في رعايةِ إحدى مراكزِ الرضعِ بعدما أعطته اسمَ عائلتها وعادت إلى لاهاي لاستكمالِ دراستها حتى جاء موعدُ رحيلِ صديقها الأوغنديِّ إلى وطنه ثم أحضرت الطفلَ ليعيشَ معها. بعد عدة شهورٍ أخرى صادقت شابًا أشقرَ من لكسمبورج وعاشا معًا شهورًا قليلةً حتى إذا شعرت أنها حاملٌ منه افتعلت مشاجرةً انفصلا بسببها ورحلت عن المدينةِ وتقدمت للعملِ بوظيفةٍ في إحدى مدنِ الشمالِ المقابلةِ لجزيرةِ بريطانيا (فولندام). فراو آن لديها الآن طفلان الأكبر ٩ سنواتٍ أسود زنجيٌّ والأصغر ٦ سنواتٍ

أشقر. الطفلان أخوةٌ من نفسِ الأم ويحملان نفسَ اسمِ العائلةِ. نظرتُ إلى الطفلين ببؤسٍ شديدٍ وقلبي يرثى حالهما. الطفلان في عراكٍ مستمرٍ، الأكبر الأسود حاقدٌ وناقمٌ بسبب لونه وكارهٌ لأخيه بل ولأمه أيضًا ومنطويٌ، والأصغر الأشقر يبدو متخلفًا عقليًا لا يفقه ما يدور حوله وينظرُ لأخيه الأكبر بشيءٍ من التأففِ المصحوبِ بالخوفِ المستمرِ منه. رغبت الأم أن تترفعَ على القدرِ والمشاعرِ الإنسانيةِ الفطريةِ فخلقت مأساةً حقيقيةً لا تدركها وإنما تفخرُ بما صنعه رحمها. هذه هي الإنسانيةُ تترفعُ عن المعاني الفطريةِ البسيطةِ لتخلق مشاعرَ معقدةً مشوهةً باسم الفلسفةِ أو الاجتماعِ أو حقوقِ الإنسانِ.

خيانةُ

كنتُ أنا وچوليا على النقيضِ تمامًا فكريًا. كانت تثقُ في قدراتي العقليةِ ثقةً تامةً، ولكن كانت تتأسفُ لأن عقلي هذا ملوثٌ بمشاعرٍ شرقيةٍ غبيةٍ. كانت ترى الناسَ جميعًا إما أبيضَ أو أسودَ، وكنتُ أنا أراهم كلهم مكتسين باللونِ الرمادي، لا لونَ واحدٍ أو واضحٍ لهم.

كان لنا صديقٌ مصريٌّ مشتركٌ لأنه متزوجٌ من صديقتها إليزا. عرفت چوليا مني أن هذا الصديقَ على علاقةٍ بفتاةٍ مصريةٍ من بلدته في دلتا مصر، وصممت أن تخبرَ إليزا بهذه المعلومات. توسلت إليها ألا تفعلَ لأن هذا سوف يسبب لي إحراجًا شديدًا مع هذا الصديقِ وقد يؤدي إلى قطعِ علاقتي به، وأكثر من ذلك كنت لا أقدر على مواجهته. لم تسترح لرأيي وقالت لي إنها حتى لو فقدت صداقتها معي فهذا ليس كثيرًا إذا قورن بأنها سوف تفقد نفسها إذا قابلت إليزا ولم تخبرها بما يكمن في سرها.

احتدت المشكلة وخانني عقلي الملوث بالمشاعر الشرقية. بعد عدة أيام جاءتني چوليا بالحل. أنا أتكلم مع أحمدَ صديقي وأخبره بما عرفت چوليا وما تنوي فعله من إخبار إليزا، والأفضل من ذلك أن عليه هو شخصيًا أن يعترف لإليزا ويستعطفها ويطلب منها مسامحته بدعوى أن ما حدث كان في لحظات ضعفٍ منه وأنه سوف يقطع علاقته بهذه الفتاة المصرية وينساها. لم أستسغ الفكرة في البداية وترددت لعدة أيام، لكن بضغطٍ شديدٍ منها اضطررت أن ألبي طلبها.

تحدثت إلى أحمدَ فصدم بما قلت له ولامني لأنني أفشيت سرًا ما كان يجب أن أفشيه، وسقط في يده وطلب مني أن أحاول مرةً ثانيةً إثناء چوليا عن عزمها. أكدت له أنني حاولت مراتٍ عديدة لكنها رفضت وصممت على رأيها. مر أسبوعٌ عرفت بعده أن أحمدَ نفذ ما طلبت منه، ولكن للأسف أتت الرياح بما لا تشتهي السفن. غضبت إليزا ورفضت مصالحة أحمدَ بل تركت المنزل وأخذت معها كل أشيائها أيضًا وتعاقدت مع مكتب محاماةٍ لرفع دعوى طلاق.

انزعجت جدًا لما حدث لأحمدَ وتوجهت غاضبًا إلى چوليا لأعلمها بسوء أفعالها، فتعجبت مني قائلة: "من يدفع الثمن؟ هو من ارتكب الخطأ؛ هو خان وعليه أن يدفع مقابل فعلته، لا أنا ولا أنت ولا المسكينة إليزا المخدوعة."

الحِرْباءُ

من الطبيعي أن يعشقَ الرجلُ المرأةَ الجميلةَ وأن يستطعمَ الأكلَ الشهيَّ وأن يشتهيَ الحسنَ والجمالَ والمرحَ والضحكَ. أما من يدعي أنه يترفعُ على هذا أو ذاك فهذا هو غيرُ الطبيعيِّ، فالغرائزُ الإنسانيةُ هي أصدقُ المشاعرِ وهي مبعثُ السعادةِ وتصبحُ فقط سببَ الشقاءِ إذا تصارعَ البشرُ عليها وطمعَ المرءُ في مكاسبِ أخيه. وقد يكونُ الترفعُ عن الغرائزِ تعبيرًا عن ضعفٍ وليس قوةً، ويصبحُ هذا الترفعُ نوعًا من الرياءِ والنفاقِ إذا حاولَ المرءُ أن يجعلَ من نفسهِ شهيدَ الخلاصِ أو يفترضَ لنفسهِ علوًّا وسموًّا على الآخرينَ لأنه لا ينهزمُ أمامَ غرائزهِ.

لم تكن چوليا أبدًا شخصًا محبوبًا لمن يجهلها، فهي صريحةٌ واضحةٌ ترى في المجاملةِ والتجملِ كذبًا ورياءً، وكانت لا تهتمُّ كثيرًا برأي الناسِ فيها، فكانت دائمًا ما تستكفي بأصدقاءٍ وزملاءَ قليلينَ يعلمونَ عنها حقيقتها وصدقها ولا تحتاجُ إلى رضاءِ الآخرينِ عنها. كانت تستهجنُ جدًا علاقتي بناصر وهو أحدُ أقاربي المصريينَ لأنها

كانت ترى فيه كذبًا وسوءَ خلقٍ واضحينِ، وكنت أبررُ لها علاقتي به بأنه من أقاربي و من بلدتي وأن الزمنَ سوف يجمعنا ثانيةً في مصر وقد تغضبُ أسرتي إذا قطعتُ علاقتي به. هي لا ترى في تبريري هذا أيَّ حكمةٍ وإنما تراه ضعفًا ورياءً. كانت ترفضُ دائمًا مقابلتهُ وكنت أخفي هذه المشاعرَ عنه حتى لا أجرحَ مشاعرهُ.

مرت شهورٌ حتى كنا في إجازةٍ بمصر وذهبت مع چوليا إلى أحدِ أصدقائي وكان زوجَ أختِ ناصر ولم تكن چوليا تعلمُ بهذه العلاقةِ، ولكنها لمحت بوضوحٍ أغضبها أن هذه الأخت تعاملها بلا أيِّ ترحابٍ وتنظرُ إليها نظراتٍ فيها غضبٌ وكراهيةٌ، وإن كنت قد لمحتُ بعضَ هذه النظراتِ إلا أنني لم أفهمْ مقصدها ولم أعرها أيَّ اهتمامٍ. صممت چوليا على تركِ هذا المنزلِ في الحالِ دون انتظارٍ لغذاءٍ دعينا له لديهم. حاولت أن أثنيها دون جدوى. شعرت بالحرجِ من مضيفنا وحاولت أن أكذبَ مجاملةً له فقلت له إن چوليا تشعرُ ببعضِ الألمِ وتقلصٍ في معدتها ولن تستطيعَ تناولَ أيِّ أكلٍ. فهمت چوليا ما أقولُ وكذبتني أمامَ الصديقِ وزوجتهِ وقالت إنه ليس بها أيُّ عللٍ ولكنها لا ترغبُ بالأكلِ مع زوجةِ

صديقي. سقط في يدي ولم أجدْ مفرًّا سوى الهروبِ السريـعِ من هذا المنزلِ.

ما أن خرجنا من المنزلِ حتى صببتُ جمَّ غضبي على چوليا وسلوكها. صدمتني صديقتي بحقيقةٍ كنت أجهلها وحاولت هي أن تخفيها عني شهورًا طويلةً. قالت لي هل تذكرُ يومَ أن أتى ناصر إلى منزلنا في أمستردام وكنت أنت في نوبتجيةٍ بالمشفى وعَلِمَ أنك لن تأتي إلا في الصباحِ وطلبت منه أن يبيتَ في بيتنا لتأخرِ الوقتِ وشدةِ برودةِ الجو. في هذه الليلةِ حاول ناصر أن يراودني عن نفسي متعللًا بأنك لن تكونَ أنت زوجًا لي في المستقبلِ لأنك كنت تنوي الزواجَ من شقيقتهِ الوحيدةِ وأن كلَّ الأسرةِ تعلمُ ذلك. قلت له ساعتها إن هذا لا يهمني فعلاقتي بك هي صداقةٌ لم تطرقْ أبدًا لرغبةٍ في الزواجِ ثم هذا شيءٌ لا يخصهُ ولا يبررُ له أن يحاولَ أن يكونَ علاقةً معي.

صُدِمتُ من سماعِ هذه الأحداثِ ثم سألتها ولماذا لم تصدقيه ولماذا لم يكنْ لكذبهِ أيُّ وقعٍ على علاقتنا. قالت لي إنها كانت ترى كلَّ الكذبِ في كلماتهِ وفي تعبيراتِ وجههِ ونظراتِ عينيهِ وكانت تقدرُ دائمًا مدى صدقي معها، فالمرءُ إما أن يكونَ صادقًا أو كاذبًا،

المرءُ إما أن يكونَ كريمًا أو خبيثًا، نحن لسنا في حاجةٍ أن نزنَ أو نقيمَ الإنسانَ في كلِّ موقفٍ أو حدثٍ، يكفينا من الحياةِ من نعرفهم ونحبهم ونثق فيهم، أما الآخرون فلا حاجةَ لنا أن نشغلَ حياتنا بهم.

فراو إنجيلا و مستر مور

لم تكن چوليا رقيقةَ التعاملِ، لكنها كانت عميقةَ الإحساسِ بالآخرين في حنانٍ لا يبدو على وجهِها أو سلوكِها. لم يكن من الغرابةِ أن أجدها دامعةَ العينِ في غفلةٍ من الحاضرين لشيءٍ أصابني أو أصاب آخرَ من أحبائِها. صارحتها يومًا بملاحظتي هذه، فساءها أنني كشفت عنها سرًا كتمته عن المقربين. ذهبت يومًا برفقتها إلى أسرةٍ صديقةٍ لها، هي زوجةٌ ألمانيةٌ عازفةٌ فيولا وزوجها أمريكيٌّ يعمل في مجالِ الطاقةِ النوويةِ، وعمل بمصر فترةً من الزمن في إنشاءِ أكبرِ محطةِ طاقةٍ كهربائيةٍ في مصر، تلك التي تقع في قليوبَ على ما أتذكر. كان هو من طلب منها دعوتي لأنه أحب المصريين وأحب عشرتهم واشتاق إلى صحبتهم. ذهبنا في قطارِ النومِ من أمستردام إلى مدينةٍ ساحليةٍ صغيرةٍ بالقرب من روتردام. كان الجو شتويًا والجليد يغطي كل شيءٍ حتى يمتلكك الإحساس أنك تسير في بياضٍ حليبيٍّ بديعٍ، ولكن بلا أي مشاعرٍ أو انطباعاتٍ. وصلنا قبل منتصفِ ليلةِ نهايةِ الأسبوعِ إلى بيتٍ صغيرٍ جميلٍ تشعر فيه

باندماجِ خيالِ شاعرةٍ مثل الزوجةِ فراو أنجيلا وعقلِ مهندسٍ مبدعٍ مثل مستر مور. قابلونا بترحابٍ سريعٍ، أخذانا إلى حجرةٍ معيشةٍ دافئةٍ تملأ أجواءَها موسيقى نحاسيةٌ صاخبةٌ تزيد الجو دفئًا، وسريعًا ما أتت القهوةُ الأمريكيةُ الساخنةُ التي دائمًا أشتاق إليها و حتى يومنا هذا، مع قطعِ الكيكِ بنكهةِ الشوكولاتةِ النافذةِ. بعد كلماتٍ عن الرحلةِ والطقسِ والقطارِ، سألتني أنجيلا كثيرًا عن مصر وعيناها ساهمتان فيما أقول، وأراها كأنها تحاول أن تعيش وسطَ حكاياتي حتى تندمج فيما أقص. لم أدرك بدايةَ سببِ انفعالها هذا بما أقص، ولكن ما أن انتهيت في حكاياتي هذه التي كانت شبيهةً بحكاياتِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ بالنسبة لها، حتى لقط مستر مور طرفَ الحديثِ وأعلن عن الغرضِ من هذا الحوارِ الطويلِ. أنجيلا ومور تزوجا منذ أكثر من ١٨ سنةً وقد قاربت على الأربعين عامًا من عمرها. اتفقا في البداية على تأجيلِ فكرةِ الإنجابِ سنواتٍ، ثم إذا بها تعلن رفضها تمامًا لها وتقرر ألا تنجب أطفالًا أبدًا. أصاب هذا الموقف مستر مور بالحزن، وحاورها وجادلها محاولًا إثناءها عن قرارها بلا جدوى. ماذا يدور في عقلِ هذه المخبولةِ التي قارب سنها

على سنٍ لن تستطيع بعده الإنجاب حتى وإن رغبت؟ هل حب مستر مور لها يجعله يستسلم للحياة بلا أطفالٍ بقيةَ عمرهِ؟ أما حكمة إنجيلا كانت أنها أبدًا لن تشتاق ولن تندم على مشاعرٍ لم تشعر بها من قبل، ثم أنها لن تُسَخِر البقيةَ الباقيةَ من عمرها في خدمةِ طفلٍ أو شابٍ لا وجود له اليوم، ولا تعلم عندما يأتي هل يكون جميلًا أو لطيفًا أو حنونًا أم على النقيض من هذا كله. مستر مور المبدع له رأيٌ آخرُ، وهو ما اقتنع به أثناء معيشته في مصر. رأى فقراءَ كثيرين لا يملكون في الحياة سوى أطفالٍ كثرٍ. رأى أناسًا لا يملكون أموالًا ولا سياراتٍ ولا بيوتًا، ولكنهم يعيشون وسطَ بشرٍ يجلبون لهم دفئًا تعجز ماكيناتُ الطاقةِ الكهربائيةِ أن تبثه بينهم. أطفالًا يصدر منهم صخبٌ وضوضاءٌ تفوق هذه السيمفونيةَ النحاسيةَ روعةً. الإحساس بالأجسادِ أروع ما يمكن أن يحسه بشر. أسقط في يدي، فبدلًا من أن أميل إلى رأي أنجيلا لأنه كان الأقرب لي وقتها، وجدتني قد اُسْتُأجِرتَ دون أن أدري لأحبب لأنجيلا حلاوةَ الأمومةِ وروعةَ الأبوةِ وجمالَ الأطفالِ بكل شقاوتهم وشقائهم. لم أقوَ أن أغالط مشاعري، وكعادتي السيئة وقفت على

الحياد، ما هذا رائع ولا ذلك ضروري، ويكفي الإنسان قناعته الحقيقية إذا تمكنت منه أن يسير وراءها. ومن يومها أدركت أنه لا غرابة في أي شيءٍ يبدو غريبًا.

عزاء هير فولفجانج

الحياة كما نراها نحنُ، وليست هناك حياةٌ واحدةٌ كما يعتقد البعضُ. كثيرٌ من الناسِ يفتعلون خصومةً مع الحياةِ ويستعدون للعراكِ معها وكأن الحياةَ عدوٌ لهم. يكرهون من يعيشون معهم، ولا يرون أيَّ جمالٍ فيها، وإنما يبحثون عن القبحِ ليعلنوا نقدَهم وتمردَهم عليها. عاش البشرُ سنواتٍ طويلةً في حروبٍ ومجاعاتٍ وفقرٍ ومرضٍ حتى اعتادوا على ذلك، فصمتوا وأذعنوا لقدرِهم. فإذا ما لانت لهم الحياةُ وقُرِبَت إليهم الدنيا واعتادوا على الكثرةِ والوفرةِ، أعلنوا تذمرَهم على غيابِ القيمِ والمعاني الإنسانيةِ. هكذا هم غيرُ راضين. فإذا ذهب العمرُ واقترب الموتُ، تجدهم يبكون حياتَهم نادمين آسفين على ما ضاع من العمرِ.

قصةُ البروفيسور فولفجانج من أشجى ما عاصرتُ في حياتي. اتصلت بي جوليا في إحدى ليالي صيفِ ١٩٨٨ تطلب مني طلبًا غريبًا. هي واثنتان من صديقاتِها قررن زيارةَ أستاذِهن في الجامعةِ والمقيم في سويسرا لظروفِ مرضِه، وستكون الرحلةُ بالسيارةِ عبر

ألمانيا خلال عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ. وقد رأت چوليا أنها فرصةٌ طيبةٌ أن نتسكع في ربوعِ الجنوبِ الألماني سويًا ونستمتع بالطبيعةِ في جوِّ الطقسِ الصيفي الرائعِ. من هو بروفيسور فولفجانج الذي سنزوره اليوم؟ هو أستاذُ الأدبِ الإسباني في جامعةِ أمستردام. عمرُه اليوم ثمانٍ وأربعون عامًا، أصيب بسرطانِ المعدةِ منذ عامين وأجرى جراحةً دقيقةً استؤصلت فيها المعدةُ كلها. ومنذ شهرين عاوده المرضُ وأجريت له عمليةٌ أخرى لم تكلل بالنجاحِ، حيث تمكن الورمُ من كافةِ أحشاءِ بطنِه. قال له الأطباءُ إن حالته لا شفاءَ منها وإن عمرَه لن يتبقى منه سوى أسابيعَ قليلةٍ. فولفجانج غيرُ متزوجٍ وكان يعيش برفقةِ صديقةٍ له مدةً جاوزت عشرين عامًا، ثم أصابها مرضٌ بجميعِ أعصابِها الطرفيةِ وأصبحت غيرَ قادرةٍ على الحركةِ، فأقامت في إحدى المصحاتِ الدافئةِ في جنوبِ إسبانيا، وقد عاودها هير فولفجانج قبل مرضِه الأخير ليطمئن عليها. ما أن علم بروفيسور فولفجانج أنه على وشكِ الموتِ حتى أرسل إلى من يتذكر من أصدقائِه وتلاميذِه لرؤيتِهم رؤيةَ الوداعِ. وصلنا بعد ساعاتٍ طويلةٍ إلى مدينةٍ صغيرةٍ على أطرافِ زيورخ. عرضت على

چوليا أن نشتري بعضَ الزهورِ، فابتسمت وقالت: ومن يرعاها والرجلُ على شفا الموتِ؟ دلفنا إلى بيتٍ صغيرٍ جميلٍ وقابلتنا راعيةُ البيتِ، وما أن دخلنا الطابقَ السفلي حتى فوجئت بخلوِّ المنزلِ من أيِّ أثاثٍ. صعدنا إلى الطابقِ العلوي وهناك وجدنا بروفيسور فولفجانج يرقد في غرفةِ نومٍ صغيرةٍ ليس بها إلا قليلٌ من الأثاثِ وكثيرٌ من الأدويةِ والمراهمِ ومنضدةٌ طويلةٌ منخفضةٌ عليها الكثيرُ من الأقلامِ والكتبِ وبعضُ الهدايا الصغيرةِ. بالرغم من شحوبِ وجهِه وهزالِ جسمِه، أظهر بروفيسور هانز ترحابًا كبيرًا بنا وظهرت على عينيه الغائرتين فرحةٌ كبيرةٌ. تعرف عليَّ وسعد بلقائي وأظهر معرفتَه ببعض الأدباءِ المصريين مثل يوسف إدريس ويحيى حقي وتوفيق الحكيم. ثرثروا كثيرًا عن ماضيهم في الجامعةِ وبعضِ المواقفِ المضحكةِ وقليلٍ من المواقفِ الباكيةِ، شاكرًا لهم تعبَهم وسفرَهم الشاقَ للقائه قبل وداعِه الدنيا. وإذا به يهدي كلَّ من الفتياتِ الثلاثِ بعضَ الهدايا ما بين روايةٍ باللغةِ الإسبانيةِ وأخرى دفترٍ لأشعارٍ وثالثةٍ كأسٍ زجاجيٍّ من صناعةِ بلدته بسويسرا. أما أنا فقد أهداني قلمَ حبرٍ من النوعِ القديمِ الذي يملأ كالريشةِ والذي ما

زلت أحتفظ به حتى اليوم. أراد أن يجعلنا نحمل معنا ما يذكرنا به. تبادلوا القبلاتِ بلا أيِّ دموعٍ، داعين له أن يخفف الله عليه لحظاتِه الأخيرةَ، ووعدوه بزيارةِ قبرِه كلما سنحت لهم الفرصةُ، وأن هير عبد اللطيف سيكون صاحبَ أولِ باقةِ زهورٍ سوف توضع على قبرِه. تركنا الرجلَ وعلى شفتيه ابتسامةٌ حقيقيةٌ وفي عينيه نظراتُ الشكرِ والامتنانِ للساعاتِ القليلةِ الأخيرةِ من عمرِه التي قضاها مع أصدقائِه وأبنائِه.

سقوط طائرة

لا قناعةَ لنا فيما سيأتي إذا لم نُقدِّرْ ما نملك. أنا أكره ازدحامَ الأشياءِ وكثرتها حتى لو كانت ملكي. أحب دائمًا أن أتخلصَ مما لا أحتاجه اليوم حتى لو كنتُ سوف أحتاجه غدًا. الأيامُ حيةٌ تنبضُ بكل شيء، لا حاجةَ إلى تدبرها وتوقعها. في عام ١٩٩٠، قررت چوليا الهجرةَ إلى المكسيك لتعملَ كمربيةٍ في دارٍ لتربية الأطفال المعاقين. أخذت فقط بعضَ ملابسها وبعضَ الكتب وأسطواناتِ الموسيقى الكلاسيكية وموسيقى البوب. تركت شقتها وممتلكاتها للمُستأجِر الذي سيأتي لشقتها بلا أي مقابل، وسط تعجبي لأنني أعلم بظروفها المادية، لكنها كانت تقول إن حيرتي بامتلاكها أشق عليَّ من تخلصي منها، ثم إن الحياة الجديدة تستدعي أكثر ما تستدعي نسيان الماضي. أنا فهمت قولها هذا لأنني كنت أعلم ببؤس حياتها في أمستردام. ذهبت چوليا إلى المكسيك لتبدأ حياتها الجديدة، وعدت أنا إلى القاهرة. بعد عدة شهور، وصلتني رسالة من چوليا مفادها أنها سوف تذهب إلى أمستردام لمدة شهر وتتساءل إذا كان

هناك فرصة أن نتقابل هناك. قالت إن سبب سفرها هو أن حادثة الطائرة الهولندية الشهيرة التي سقطت في أمستردام قد سقطت فوق منزلها ومات المُستأجِر، وقررت شركة التأمين دفعَ مئات الآلاف من الدولارات تعويضًا لكل متضرر من الحادث، وأنها سوف تحصل على مائةٍ وعشرة آلاف دولار مقابل فقدانها مفروشاتٍ لا تزيد قيمتها عن مئات قليلة من الدولارات. بعد عدة مراسلات بيننا، فوجئت أن أسلوب حياتها لم يتغير؛ نفس العمل، نفس المنزل، وأكاد أتخيل حتى نفس ملابسها. عرفت منها أنها لم تكن أبدًا رافضةً لحياتها الفقيرة، وأنها لم تكن تتمنى منزلًا أكبر أو حياةً أكثر ترفًا، وأنه حتى طبيعة عملها ونشاطها في مجال حقوق الإنسان لن يسمحا لها بأن تملك وقتًا أفسح للبذخ. هي كانت دائمًا تفعل ما تحب وما هي مقتنعة به. كانت دائمًا تقود حياتها، لا تترك الآخرين أو وعرةَ الطريق يغيروا وجهتها. كانت دائمًا تعتقد أن ما تملكه داخلها أكثر كثيرًا مما يأتي من خارجها. لن يخدعها بعض المال من هنا أو بعض الناس من هناك.

قصةُ البالطو الفوشيا

اليومَ ذهبتُ إلى مستشفى الجامعةِ بالزقازيق سيرًا على الأقدامِ. الجوُّ خانقٌ مكتومٌ به أتربةٌ رطبةٌ وزحامٌ فوضويٌّ كئيبٌ، لا تعرفُ السائرَ من الراكبِ. دراجاتٌ وسياراتٌ في أوضاعٍ شبيهةٍ بسياراتِ التصادمِ في ملاهي الأطفالِ. القاذوراتُ تملأُ الشارعَ وصاحبُ الصيدليةِ المقابلةِ للمستشفى يشعلُ مخلفاتِه، والدخانُ يضيفُ إلى جوِّ الشارعِ اختناقًا أكثرَ. اضطررتُ أن أعدو فوق مياهِ المجاري الجاريةِ في وسطِ الشارعِ منذ أكثرَ من شهرٍ. الناسُ تسيرُ يمينًا ويسارًا بلا أيِّ انطباعٍ. في وسطِ هذا الجوِّ المفزِعِ، رأيتُ سيارةً جديدةً براقةً تركبها فتاتانِ في منتهى الجمالِ، تضعانِ مكياجًا ملفتًا للنظرِ ويبدو أنه من أرقى الماركاتِ الفرنسيةِ العالميةِ. وقفتِ السيارةُ بجوارِ الصيدليةِ ونزلتِ الفتاتانِ تحملانِ البلاطيَ البيضاءَ على أكتافِهنَّ ويلبسانِ ملابسَ مثيرةً تبدو أنها من أرقى الماركاتِ الأوروبيةِ، يتخايلانِ من جمالٍ وأنوثةٍ وروعةٍ لا تتناسبُ مع الجوِّ المحيطِ. سرتُ وراءَهما لأشغلَ نظري عن المناظرِ القبيحةِ

الأخرى. ذهبتا إلى مستشفى الجراحةِ ثم إلى مكتبِ المديرِ. فهمتُ أنهما طبيبتا امتيازٍ ذهبتا ليوقعا في دفترِ الحضورِ. خرجتا من المبنى إلى الكافتيريا، إحداهما أحضرتْ كوبًا من النسكافيهِ والأخرى إحدى المثلجاتِ. رجعتا إلى مدخلِ مبنى الجراحةِ. جلستا على سلمِ المبنى ترتشفانِ المشروباتِ في استمتاعٍ. هنا تذكرتُ حادثةً حدثتْ لي في العامِ ١٩٨٩. كنتُ في عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ عند صديقتي في أمستردامَ، كان الجوُّ صيفيًا لطيفًا عندما ذهبتُ. قضينا يومَ السبتِ نهارًا في قريةٍ ساحليةٍ لنأكلَ سمكَ الهارينجِ النيءَ المخللَ بالبصلِ والخلِّ. في الساعةِ الواحدةِ صباحًا اتصلتْ بي أنجريتا رئيسةُ العملياتِ بأسنَ لتخبرني أنهم في طريقهم لإرسالِ طائرةِ هليكوبتر للحصولِ على كبدٍ من شابٍّ توفي في حادثِ سيارةٍ في بلجيكا لزراعته لفراو ستيفان، وتسألني إذا كان بالإمكانِ اشتراكي في فريقِ نزعِ الكبدِ والطائرةُ ستقومُ في تمامِ الساعةِ الرابعةِ. نظرتُ في جدولِ سيرِ القطاراتِ وعرفتُ أن أحدَ القطاراتِ سيتوجهُ إلى أسنَ بعد ٤٠ دقيقةً والطريقُ يستغرقُ ٨٥ دقيقةً. وافقتُ على الفورِ. نظرتْ صديقتي چوليا إليَّ بنظرةٍ تنمُّ عن إعجابِها بصديقِها

الجراحِ. كانت هناك مشكلتانِ. المطرُ ينهمرُ كالسيولِ في الخارجِ وأنا حضرتُ بدون بالطو مطرٍ، والمشكلةُ الثانيةُ أنه ليس هناك مواعيدُ للباصاتِ لتقلني للمحطةِ. أوجدتْ صديقتي الرائعةُ حلًا للمشكلتينِ. أحضرتْ بالطو المطرِ الخاصَّ بها. لا يمكن. قلتُ لها وأضفتُ أن لونه فوشيا وياقته بها فروٌ وأنا سأبدو مثل البلياتشو أو مثل الشاذِّ. ضحكتْ وقالتْ لا أحد يهتمُّ، هذه أوهامٌ في مخيلتِك. بعد ترددٍ لبستُ البالطو، أما مشكلةُ الذهابِ إلى المحطةِ فقد حلتها بأن أقلتني خلفها على دراجتها لمسافةٍ استغرقتْ أكثرَ من ٢٥ دقيقةً تحت السيولِ وهي لا ترتدي أيَّ بالطو مطرٍ. تركتني في المحطةِ وأنا أهرعُ إلى القطارِ وفي غايةِ الخجلِ من هذا البالطو، ولكنني فوجئتُ أنه غير ملفتٍ للنظرِ على الإطلاقِ. خلعتُ البالطو داخلَ القطارِ وعندما وصلتُ إلى مهبطِ الطائرةِ قابلتْ أنجريتا وكنتُ قد ارتديتُ البالطو مرةً أخرى. لم تعلقْ مطلقًا بل امتدحتْ وصولي في الموعدِ تمامًا. قضيتُ ١٢ ساعةً من هولندا إلى ألمانيا إلى بلجيكا ثم إلى ألمانيا مرةً أخرى مرتديًا هذا البالطو المثيرَ ولم ألاحظْ أنني كنتُ ألفتُ النظرَ مطلقًا بالرغم من الخجلِ الشديدِ

داخلي. حصلنا على الكبدِ وأرسلناه إلى فريقِ الزرعِ وذهبتُ إلى مسكني لأنامَ بعد يومٍ طويلٍ. قابلتْ فراو ستيفان صاحبةَ الكبدِ المزروعِ بالمصادفةِ بعد ٩ أشهرٍ من نجاحِ العمليةِ وقصصتُ عليها قصةَ البالطو الفوشيا. ضحكتْ كثيرًا وسألتني هل تعرفُ شيئًا عن الشابِّ صاحبِ الكبدِ الذي حصلتُ عليهِ. ضحكتُ وقلتُ لها لا وكان الإفصاحُ عن ذلك ممنوعًا قانونيًا وأدبيًا.

علية القوم

أخيرًا وجدت لي صديقًا من عليةِ القومِ كان زميلَ دراسةٍ في مدرسةِ الظافرِ الابتدائيةِ في حيِّ منيلِ الروضةِ، وكان من أسرةٍ فقيرةٍ تقطنُ منطقةَ جامعِ عمرو بن العاص. آخر مرةٍ قابلتُه كانت مصادفةً في مكتبِ التنسيقِ للثانويةِ العامةِ بجامعةِ القاهرةِ عام ١٩٧٥، وعرفتُ أنه التحقَ بكليةِ الزراعةِ. اتصلَ بي منذ أسبوعين بعدما قرأ اسمي في صحيفةِ الأخبارِ في حوارٍ عن نقابةِ الأطباءِ والإضرابِ الذي قام به الأطباءُ. حاول محمود أن يذكرني بنفسهِ فأدعيتُ خجلًا وإملاقًا أنني أتذكره جيدًا. طلب مني طلبًا غريبًا وهو أن أقومَ بزيارةٍ طبيةٍ لوالدتهِ العجوزِ التي تعاني من قرحِ الفراشِ. بعد ترتيباتٍ مكانيةٍ وزمانيةٍ، أرسل لي سيارتهُ المرسيدس ٥٠٠ السوداءَ بالسائقِ لتقلني من منزلِ والدتي بالمنيلِ إلى ورشةِ الرخامِ الخاصةِ به في حيِّ الأباجيةِ بمصر القديمةِ. الحيُّ مزدحمٌ تملؤه القاذوراتُ ويعمه الضجيجُ في كل مكانٍ. قابلني بترحابٍ شديدٍ وبالكاد تذكرتُ ملامحه، ولكنني لم أتذكر أكثر من ذلك. تَحاضنّا وأجلسني على كرسيٍّ خشبيٍّ عتيقٍ على بابِ ورشةٍ يملؤها عمالٌ وجوههم مبيضةٌ

من العملِ في تقطيعِ الرخامِ. عرفتُ منه أنه أصبح رجلَ أعمالٍ كبيرًا ويملك منجمًا لتصديرِ الرخامِ في منطقةِ شقِّ التعبانِ، وأن ثروتهُ عدةُ مئاتٍ من الملايينِ من الدولاراتِ. ركبنا السيارةَ معًا وقادنا السائقُ إلى منزلِ والدتهِ بمنطقةِ المدبحِ القديمةِ. مررنا بمقابرِ البساتينِ بين قاطنيها من أحياءٍ كالموتى وموتى يئنون من الأحياءِ، وأطفالٍ عراةٍ أو مكسوين بأوساخٍ مهلهلةٍ، وروائحِ الشيشةِ والحشيشِ، وخليطٍ من روائحِ القبورِ ومياهِ المجاري حتى خرجنا عند السيدةِ عائشةَ وسطَ تجمهرٍ فوضويٍّ من البشرِ والسياراتِ والحيواناتِ وكلِّ أنواعِ الحشراتِ. حمدتُ اللهَ أن السيارةَ المرسيدس السوداءَ ذاتَ الزجاجِ الغامقِ والمكيفةِ عزلتنا عن قبحِ المنظرِ والمسلكِ والنفوسِ. ما أن اقتربنا من مهبطِ القلعةِ حتى تذكرتُ ما حدث لي في العام ١٩٨٨.

اتصلت بي چوليا مرتاعةً ومتوتِّرةً تقول لي إنها سوف تحضرُ لزيارتي باكرَ السبتِ لأنها أثناءَ استحمامها شعرت بوجودِ ورمٍ بثديها الأيسرِ، وأنها اتصلت بطبيبها لتحددَ موعدًا فلم تجد موعدًا قبل يومِ الثلاثاءِ، وأنها لن تهدأ حتى تطمئنَّ من أنه ليس بورمٍ خبيثٍ. انتقل الارتياعُ والتوترُ لي ليس خوفًا عليها وعلى ثدييها

فقط، ولكن لأنني لم أكن أملك أيَّ مالٍ في جيبي ولا أملك رفاهيةَ ضيافتها. صحيح أملك كفايةً من الأكلِ بالمنزلِ، ولكن ليس من المنطقيِّ أن تقضيَ اليومَ كله في المنزلِ. هنا تذكرتُ أنني أملك تذكرتين لأوبرا قريبةٍ من نهرِ الراينِ حصلت عليهما هديةً من إحدى محالِّ الملابسِ. حضرت چوليا وكشفتُ عليها واطمأنتْ أنه ليس هناك سببٌ للخوفِ، وأن ما في ثديها لا يعدو أن يكونَ تغيراتٍ هرمونيةً لا تبعث على القلقِ. بعد الكشفِ فاجأتها بكلِّ فخرٍ وغرورٍ بدعوتي لها لحضورِ حفلٍ بالأوبرا. سَعَدت بهذه المفاجأةِ وذهبنا إلى الأوبرا وقضينا سهرةً رائعةً أكملناها بالتريضِ على نهرِ الراينِ في جوٍّ صيفيٍّ بديعٍ ومناظرَ خلابةٍ، وتكلمنا في كلِّ شيءٍ، وشكت لي أحوالها الماليةَ المتعثرةَ، وبالرغم من ذلك دعتني لمشروبِ المانجو الطازجِ لنرتشفه أثناءَ سيرنا على شاطئِ النهرِ امتنانًا منها لي بالكشفِ عليها وسهرةِ الأوبرا. كانت ليلةً بديعةً وضحكنا وتعجبنا كيف أن ثراءَ القلوبِ قد أنسانا فقرَ الجيوبِ.

اللقاء الأخير

يبدو أنَّ الكلامَ عن العشقِ والغرامِ أصبحَ أكثرَ أمانًا ومبعثًا للودِّ والمحبةِ بعيدًا عن صراعِ السياسةِ وجدالِ الدينِ وتأويلِ التاريخِ. لم يكن هذا مذهبي، فأنا أعشقُ الفلسفةَ وعلمَ الكلامِ والتأملَ وأتعبدُ بوحدتي، أما القلبُ فيحتاجُ لشريكٍ يقتحمُ حجراتِه ويعبثُ بنبضاتِه وقد يسيلُ دماؤه أو حتى يوقفه للأبدِ. حدثَ مرةً عامَ ١٩٨٩ أنْ وجدتُ رفيقةً تقتحمُ عقلي وتغزو تأملاتي ولا تشعرني بفقدانِ وحدتي. فعلاً، اثنانِ في واحدٍ. اندمجَ الجسدانِ عندما اتحدَ العقلانِ وانسجمَ الفكرانِ بلا دماءٍ تسيلُ أو قلبٍ يشكو. هكذا يتقاربُ البشرُ، وهذا ما يسميه الناسُ في عامتهم بالقبولِ. بالطبعِ هذا يحدثُ بلا تدبرٍ ولا اختبارٍ ولا انتهازٍ. في ليلةٍ جميلةٍ دافئةٍ من ليالي صيفِ ١٩٩٠، حدثَ أنْ تجاوزَ حوارُنا الهادئُ كلَّ ما نملكُ من مشاعرٍ وأحاسيسِ الليلةِ الحارةِ، وأنْ نغوصَ بحوارِنا في عمقِ الخلافِ الحضاريِّ والثقافيِّ بين الشرقِ والغربِ. بالرغمِ مما كنتُ أعتقده من تحرري الفكريِّ في بلدي واعتقادي أنني ليبراليٌّ حرٌّ وقبولها لي بفكرِ الحداثةِ كما كان يسمى في ذلك الزمنِ، إلا أنَّ كلَّ

موروثاتِ الثقافةِ والبيئةِ التي تربيتُ عليها في بيتِنا وحارتِنا وحيِّنا احتشدتْ وتجمعتْ وأعلنتْ عن نفسها في ثورةٍ وغضبٍ شديدين. لن أقبلَ منها أنْ تسيرَ عاريةً كعادتها مرةً أخرى. لن أقبلَ تصادقَ الرجالِ وتتبادلَ الحديثَ مع الغرباءِ وتسافرَ مع زملاءِ العملِ. لم تستوعبْ هذا التغييرَ مني وشعرتْ أنني كنتُ أخدعُها وقررتْ أنها لن تتنازلَ عن طبيعتِها التي عرفتها بها ورضيتُ أنا عنها. سقطَ في يدي، فأنا لا أرغبُ أنْ أفقدَها ولا أقبلَها على طبيعتِها، ولكن هيهاتَ أنْ تصلَ معها إلى حلٍّ وسطٍ، فهي لا تعرفُ ولا تؤمنُ بهذه الحلولِ المائعةِ. حدثَ أنه بعد عامينِ كاملينِ من علاقةٍ بسيطةٍ هادئةٍ بلا أمواجٍ أو رعدٍ أو منغصاتٍ، أنْ اتفقنا على الفراقِ وأنْ يذهبَ كلٌّ منا في طريقِه. انقطعتْ العلاقةُ تمامًا، وإنْ استمرتْ الاتصالاتُ التليفونيةُ والسؤالُ عن الأحوالِ والتهاني في المناسباتِ. بعد ثلاثةِ أشهرٍ من الانفصالِ، أخبرتُها أنني قررتُ العودةَ إلى مصر عودةً نهائيةً قريبًا بمجردِ انتهاءِ بعثتي. فوجئتُ بسيلٍ منهمرٍ من البكاءِ بصوتٍ عالٍ على الخطِّ الآخرِ من التليفونِ. أغلقتُ المكالمةَ حتى تهدأَ وأعاودَ الاتصالَ بها مرةً أخرى. اتصلتْ بي هي بنفسِها بعد ٢٠ دقيقةً وطلبتْ مني رغمَ تأخرِ الوقتِ وبرودةِ الجوِّ أنْ

نتقابلَ بعد ساعةٍ ونصفٍ في محطةِ القطارِ الرئيسيةِ بمدينةِ أسن. تعجبتُ من طلبِها ولم أفهمِ السرِ وراءه. تقابلنا في الموعدِ والمكانِ وقد ظهرَ على وجهِها علاماتُ الحزنِ الشديدِ وعلى عينيها آثارُ بكاءٍ طويلٍ. قالتْ لي: "أنا أعرفُ أننا لن نرتبطَ ثانيةً، ولكني أعرفُ أنك كنتَ قد قررتَ البقاءَ في ألمانيا أو هولندا للأبدِ. أخافُ أنْ يكونَ انفصالُنا هو السببَ في تغييرِ مسارِ حياتِك، وأنا أعلمُ جيدًا بعد زيارتي لمصر أنَّ الحياةَ فيها لا تناسبُك ولا تناسبُ طريقةَ تفكيرِك." تعجبتُ من هذه المرأةِ التي بالرغمِ من انفصالِنا الأبديِّ لا زالتْ تهتمُّ بحياتي ومستقبلي وسعادتي. هدأتُ من روعِها وحاولتُ أنْ أعيدَ عليها قولَها أنَّ سعادةَ الإنسانِ تكمنُ داخلَه أينما ذهبَ وأينما أقامَ. ما زالَ هذا اللقاءُ في مخيلتي بعد قرابةِ الثلاثينَ عامًا. هذه هي المشاعرُ المجردةُ من الغرضِ والمصلحةِ، وتمنيتُ منذ ذلك الوقتِ أنْ تكونَ هذه أيضًا مشاعري تجاهَ الآخرين، ولكن للأسفِ نحن على ما تربينا عليه واعتقدناه بعيدًا عن أيِّ عقلٍ أو منطقٍ. طابتْ ليالي العشقِ والغرامِ.

ليلة الوداع

لم تكن صديقتي چوليا ملاكًا ولا تعترف بهذه الصفة عند البشرِ. كانت تراها لا تتفق مع واقع البشرِ، حتى أنها ترى أن العواطف الإنسانية هي نتاج مجتمعي حضاري، وأن الأجنة من البشرِ والحيوانات متماثلة. كان هناك خلاف كبير بيننا، غير كونها نباتية وأنا حيواني. كانت ترى أنني أملك عقل الغرب وقلب الشرق، وأنني سوف أعيش في صراع نفسي طويل لن يسمح لي أن أكون شكلًا واضحًا صريحًا. كانت تقول لي: "أنا أبغض حساسيتك المفرطة وأعشقها في نفس الوقت، ولكن البغض هو سلاح الحياة، أما العشق فهو سراب جميل لا يغني ولا يشبع من جوع." كان قرار انفصالنا صعبًا للغاية.

في ربيع العام ١٩٨٩، اتصل بي المكتب الثقافي المصري في بون وخاطبني المستشار الثقافي بصورة ودية جدًا، وقال لي: "يا ابني، بعثتك على وشك الانتهاء، وتقارير المشرف في إنجاز الرسالة ممتازة، ولكن ما علمته عن علاقتك بچوليا شككني في أنك سوف

تعود إلى مصر في الوقت المحدد." كنت قد سجلت چوليا صديقة في البلدية حتى أحصل على إقامة دائمة بهولندا وحتى تحصل هي على شقة أكبر، وأخبرت بلدية أمستردام المكتب الثقافي بذلك. انتابني شعور مرير جدًا عندما أمهلني يومين فقط لأرد عليه وليخاطب البعثات في القاهرة. بعد المكالمة جلست أفكر حتى الساعة التاسعة مساءً، وأخيرًا أخذت القرار بالعودة إلى مصر. هاتفت چوليا وأخبرتها بقراري، ولمدة لا تقل عن عشرون دقيقة لم يرد صوتها على السماعة، ثم قالت لي: "قابلني في محطة أسن الساعة الثانية عشرة والربع صباحًا"، وكان اليوم التالي يوم عمل. لم أرَ في حياتي چوليا القوية العنيدة الواثقة في نفسها بمثل هذا الضعف في اتخاذ قرار ما. قالت لي: "أنا أعلم أن علاقتنا سوف يكون لها نهاية لأنها قائمة على توتر حضاري لا أستطيع أن أصفه. أنا لم أقابل في حياتي من هو قريب مني فكريًا مثلك، وأنا مذهولة أننا على بعد آلاف الأميال كنا نقرأ نفس الكتب ونستمع إلى نفس الموسيقى. أنا تعجبت عند زيارتي لمصر وكان برفقتي صديقاتي أنك أقرب لي من الهولنديات، ولكن يبقى شيء واحد أصبح مثل الشرخ

في علاقتنا، أنك تحمل كل ميراث الشرق على كاهلك، تعيش لحظات ماضٍ غابر يمتد آلاف السنوات في كل لحظة من حاضرك. أنت مثقل بميراث ثقيل لا أستطيع أن أحمله عنك أو أساعدك فيه." حتى الساعة الخامسة والنصف صباحًا، موعد قطارها حتى تلحق بعملها في أمستردام، لم يكن بيننا سوى الدموع. في لحظة الوداع قالت لي كلمة واحدة: "طارق، أنت هزمتني بقلبك كما لم يهزمني أقوى الرجال بعضلاته. لم أعد أثق في شيء."

أمُّ الخيرِ

قَضَت چوليا أسبوعين بصحبةِ أمِّ الخيرِ في منزلِ الأخيرةِ بحيٍّ شعبيٍّ بالقاهرةِ وكنتُ أنا ثالثَهما. نشأت بين المرأتينِ علاقةُ ودٍّ شديدةٍ كأنهما أصدقاءُ قدامى وبرغمِ صعوبةِ التواصلِ بسببِ اللغةِ إلا أنهما كانا يتفاهمانِ بسهولةٍ بلغةِ العينِ وحركاتِ أصابعِ اليدِ. أمُّ الخيرِ في أوائلِ الخمسينياتِ تحملُ ملامحَ جمالٍ في غروبِه. بسيطةٌ ودودةٌ لا تملكُ من متاعِ الدنيا سوى أبنائِها الخمسِ الذين أكملوا تعليمَهم العالي وبدأوا جميعًا في طريقِ مستقبلٍ باهرٍ ينتظرُهم. أحبتْ أمُّ الخيرِ في چوليا جديتَها وتحررَها وجمالَها الأشقرَ وتحررَ جسدِها مما يسترُه وكانت ترى أنَّ اللهَ خلقَ جمالَها ليستمتعَ الرجالُ بالنظرِ إليه وأنها ليست من ملةِ المسلمين فلا غبارَ عليها أن تعيشَ كما تبغي. كانت چوليا ترى في أمِّ الخيرِ الأنثى الفطريةَ بكلِّ معانيها الراعيةَ لزوجِها الحاضنةَ لأولادِها وتدورُ حياتُها كالساقيةِ حولَ هذين الشيئين. أحبتْ چوليا أمَّ الخيرِ حبًّا جمًّا وتمنتْ لو كانت أمَّها لتمنحَها من هذا الفيضِ من الحنانِ الذي يشعُّ من قلبِها. أكلتْ

من يدِها ما لم تأكلْ مثلَه في حياتِها؛ الملوخيةُ ذاتُ الطشةِ والباذنجانُ بالثومِ والفلفلِ الأخضرِ وشرائحُ الخيارِ المخللِ حتى طبقُ العدسِ الأصفرِ بالكمونِ وجدته رائعًا. انتابتْ چوليا الحيرةَ في علاقةِ أمِّ الخيرِ بزوجةِ ابنِها المتعلمةِ كانت تعاملُها بقسوةٍ وتعنِّفُها في كلِّ وقتٍ بالرغم من أنَّ هذه الزوجةَ كانت تقومُ بكلِّ أعمالِ البيتِ في غيابِ الزوجِ الذي يعملُ في إحدى دولِ الخليجِ. لم أستطع أن أفسرَ لها هذه العلاقةَ سوى كما فسرَها فرويدُ من صراعِ الإناثِ الفطريِّ حولَ الذكرِ. في إحدى ليالي الصيفِ وفي جلسةِ البلكونِ البديعةِ الشهيرةِ لدى الشعبِ المصريِّ والتي لا يعرفُها ولا يعرفُ جمالَها أيُّ شعبٍ آخرَ في العالمِ جمعتْنا السهرةُ أنا وچوليا وزوجةُ الابنِ ودار الحوارُ حولَ خنوعِ الزوجةِ الشابةِ لحماتِها وقهرِ هذه الحماةِ لها وسمعتُ ما لم أكن أتوقعُه من چوليا أنها حاسدةٌ للزوجةِ الشابةِ التي تعيشُ هذا الكمَّ الهائلَ من المشاعرِ ما بين شوقٍ للزوجِ وإخلاصٍ ووفاءٍ لأمهِ ورضاءٍ وقناعةٍ بالحياةِ بقهرِها بلا تمردٍ. لم أفهمْ چوليا ولم أجدْ تفسيرًا لقولِها فصمتُّ حتى لمحتْ في نظرتي الحيرةَ وفي صمتي السؤالَ فقالت لي أنا أفتقدُ أيِّ علاقةٍ

إنسانيةٍ بالآخرين حتى أمي لم تسألْ عني طوالَ ثلاثةِ أشهرٍ بالرغم من علمِها بسفري إلى مصر والمكسيكِ. أحيانًا أمكثُ شهورًا وحيدةً تدفعني الوحدةُ إلى التفكيرِ في الانتحارِ تمنيتُ في يومٍ ما أن أجدَ من يحملُ بعضَ المشاعرِ نحوي حتى لو كانت مشاعرَ الكراهيةِ ليشعلَ داخلي أعصابًا وأحاسيسَ تجمدتْ.

رحلةٌ إلى المقابرِ

صديقتي الآنسةِ چوليا أو السيدةِ چوليا كما كانت تُحبُّ أن أناديها، فهي تكرهُ التمييزَ بين الآنساتِ والسيداتِ. هي أنثى شقراءُ عنيدةٌ قويةٌ تملكُ ثقةً كبيرةً بالنفسِ، وبالرغمِ من صغرِ سنِّها الذي لم يتجاوزْ ٢٦ سنةً عندما عرفتها، إلا أن ثقافتها واتساعَ اطلاعِها كان يمكنها من سهولةٍ وسرعةٍ وجرأةٍ اتخاذِ القرارِ في أعقدِ المواقفِ. كانت دارسةً للغةِ والأدبِ الإسباني وتعملُ لدى دارِ نشرِ السفيرِ الطبيةِ المشهورةِ. كانت تسكنُ في أحدِ المباني الشعبيةِ في وسطِ أمستردام. شقةٌ مساحتها ٤٠ مترًا، غرفةُ نومٍ صغيرةٌ لا تسعُ سوى سريرٍ واحدٍ وكابينةِ ملابسٍ واستقبالٍ به المطبخُ. أستطيعُ أن أتذكرَ كلَّ ملابسِها، فهي لا تملكُ سوى ٣ تي شيرت، ٢ بنطلون جينز للتبادلِ والغسيلِ، وشورتٍ واحدٍ لركوبِ الدراجةِ، وملابسِها الشتويةِ بلوفرٍ واحدٍ برقبةٍ وبالطو صوفٍ وبالطو مطرٍ فوشيه بياقةِ فروٍ، بالإضافةِ إلى زيٍّ واحدٍ رسميٍّ عبارة عن بلوزةٍ روز سادةٍ وبنطالٍ أسودَ قماشٍ يصلحُ للصيفِ والشتاءِ. بالرغمِ من أنها لها

دخلٌ معقولٌ وتعيشُ وحيدةً، إلا أنها كانت بخيلةً جدًا، لا تأكلُ كثيرًا لأنها نباتيةٌ ولتوفيرِ المالِ، ولا تشتري ملابسَ، لكنها في نهايةِ كلِّ شهرٍ تشتري بما تبقى معها من مرتبِها كتبًا وأسطواناتِ موسيقى وزهورًا وزجاجةَ نبيذٍ واحدةً للشهرِ كله. تعشقُ الأدبَ العالميَّ والموسيقى الكلاسيكيةَ. كانت ملحدةً بقرارٍ نهائيٍّ ولا تقبلُ الجدالَ أو النقاشَ فيه.

في العامِ ١٩٨٧ تقابلنا في القاهرةِ في رحلةٍ سياحيةٍ، كانت قد قرأت عن كلِّ شيءٍ عن مصر، وفي يومٍ من الأيامِ طلبت مني أن تزورَ المقابرَ لأنها علمت من التلفزيونِ الهولنديِّ أن نحوَ مليونِ مصريٍّ بالقاهرةِ يعيشون بالمقابرِ. وعدتها بذلك، وفي ذلك اليومِ بدأنا الرحلةَ بزيارةِ أهراماتِ سقارةَ، ولأن السياحةَ كانت متراجعةً جدًا بسببِ أحداثِ الإرهابِ في تلك الفترةِ، جاء أحدُ خفراءِ المعابدِ ببقشيشٍ لا يتعدى ٢٠ جنيهًا وفتح لنا أحدَ المعابدِ الجديدةِ التي أقسم أن وزيرَ الثقافةِ نفسه لم يزرها بعد، وشاهدنا آثارَ معبدٍ لم أكن أتصورْ أن يوجدَ في مثلِ جمالِه في الدنيا. تركنا سقارةَ، وفي طريقِ عودتنا مررنا بقريةِ الحرانيةِ حيث يعملُ كلُّ سكانِ القريةِ

بصناعةِ الكليمِ بالنولِ اليدويِّ. القريةُ مثلُ كلِّ قرى مصر، شوارعُ ضيقةٌ قذرةٌ، بيوتٌ بالطوبِ النيِّ، أطفالٌ يلهون وستاتٌ تطبخُ وتغسلُ أمام بيوتهنَّ، لكن الجميعَ يبدو شاحبَ الوجهِ، قذرَ الملبسِ، والحشراتُ والذبابُ في كلِّ مكانٍ. صديقتي قالت كلمةً واحدةً: لو أن قريةَ الحرانيةِ هذه هي ما كانت عليه مصر من ٥٠٠٠ سنةٍ، ومعبدُ سقارةَ الضخمُ الملونُ هي مصر اليومَ، لكانت الأمورُ أكثرَ منطقيةً ويستوعبها العقلُ. بعد رحلةِ سقارةَ مررنا على مقابرِ البساتينِ والخليفةِ، وطلبت مني أن نترجلَ من السيارةِ لبعضِ الوقتِ حتى ترى كيف يعيشُ الناسُ في المقابرِ. صادفتنا قهوةٌ بلديٌّ داخلَ إحدى فسحاتِ مقبرةٍ كبيرةٍ، دخلنا لنحتسيَ القهوةَ التركيَّ والشيشةَ، وكان الجالسون يحيطون ضريحَ المتوفى. بعدها تجولنا في أزقةِ المقابرِ مرةً أخرى بين أطفالٍ وسيداتٍ يحتلون الأزقةَ. لفترةٍ ظلت هي صامتةً حتى وصلنا السيارةَ، وكنت قد عزمت على أخذها والسفرِ إلى قريةِ أبي في أعماقِ محافظةِ الدقهليةِ، وكنت دائمًا أسميها قريةَ الغلابةِ لأنها من أفقرِ قرى مصر. المشوارُ يقطع نحوَ ثلاثِ ساعاتٍ، وطوال الطريقِ ولمدةِ

هذه الساعاتِ الثلاثِ لم تنقطعْ چوليا عن البكاءِ مما رأت حتى تورمت وجنتاها وعيناها. قبل وصولِ البلدةِ توقفنا عند أحدِ المقاهي حتى تهدأ وتغسلَ وجهها وتكفَّ عن البكاءِ حتى لا يعتقدَ أقاربي أنني قمت بضربها، هكذا قلت لها. بعد أن هدأت وتمالكت نفسها قالت لي: أنت تعرف أنني كنت مهتمةً بالعملِ الاجتماعيِّ والإنسانيِّ والحرياتِ ونبذِ التمييزِ العنصريِّ والدينيِّ. أما بعد ما رأيته اليومَ، أدركت مدى تفاهتي وتفاهةَ الغربِ كله. أدركت أنه إذا كان هناك أناسٌ يعيشون كما رأيت اليومَ، فالإنسانيةُ والأدبُ والفنُّ وكل الادعاءاتِ الإنسانيةِ في محنةٍ ومأساةٍ حقيقيةٍ.

المركبُ

كانت حياةُ چوليا في مجملِها بائسةً. كانت تعتقدُ أنها تستطيعُ أن ترتبَ أمورَ حياتِها كما كانت ترتبُ دولابَ ملابسِها. هناك قيمٌ يجبُ أن توضعَ على الرفِّ العلويِّ، ثم أمورُ المعيشةِ توضعُ في الرفِّ الأوسطِ، ثم تأتي تفاهاتٌ وسفاهاتٌ توضعُ أسفلَ الدولابِ أو حتى في سلةِ القمامةِ. لا خلافَ على أمورِ المعيشةِ أو التفاهاتِ، ولكن قيمَها كانت تصطدمُ دائمًا بهذه التفاهاتِ. لا يمكنُ أن تتعاملَ مع البشرِ من منطلقِ هذه القيمِ، فلكلٍّ قيمِه، أو على الأقلِّ لكلِّ شخصٍ ترتيباتُ أمورِ حياتِه، حتى أن بعضَهم، أو قلْ أكثرَهم، يضعُ هذه التفاهاتِ على الرفِّ العلويِّ. كنا نختلفُ جذريًا في نظرتِنا إلى أحوالِ الفقراءِ في العالمِ الثالثِ. عملُها في مجالِ حقوقِ الإنسانِ جعلَها تتعاطفُ مع الفقرِ والجهلِ والمرضِ، في حين أن معاناتي على مدى ٣٠ عامًا وسطَ هذه الثلاثيةِ جعلتني أرى أن الناسَ تستحقُّ حياتَها ومصيرَها. هي تراهم ضحايا وأنا أراهم جناةً. ذهبنا في رحلةٍ إلى أسوانَ في العامِ ١٩٨٨ واستأجرنا مركبًا في النيلِ لنتنقلَ

به بين جزرِ أسوانَ ما بين أغاخانَ وجزيرةِ النباتاتِ وجزرٍ أخرى لا أتذكرُها. كنت قد اتفقتُ مع المراكبيِّ على عشرين جنيهًا قيمةَ اليومِ كاملاً على أن ينتظرَنا عند كلِّ جزيرةٍ نزورُها. في تجديفِه بين الجزرِ، كانت چوليا ترى العرقَ يتصببُ من جبينِه والنفسَ يلهثُ من المجهودِ، فأشفقت عليه وعلى بؤسِه وسوءِ حالتِه وملبسِه، واقتربت من أذني وطلبت مني أن أعطيه خمسين جنيهًا بدلًا من العشرين لأن الرجلَ يكادُ روحُه تزهقُ من التعبِ. استسلمت لطلبِها، ثم أنهينا اليومَ وعند نزولِنا على الشاطئِ أعطيت المراكبيَّ خمسين جنيهًا وقلت له كلها لك. نظر إلى هذا البائسِ بعيونٍ منكسرةٍ دامعةٍ وقال لي: "كتر خيرك يا بيه، وأشكرلي الست هانم"، في تلميحةٍ إلى أنه قد فهم أن هذا البقشيشَ منها هي عندما أسَرت بالكلماتِ في أذني. ذهبنا متعبين إلى الفندقِ واتجهت أنا مباشرةً إلى المطعمِ في حين اتجهت هي إلى غرفتها لتغيرَ ملابسَها ثم تلحقني. بعد نصفِ ساعةٍ حضرت إلي وعيونُها منكسرةٌ دامعةٌ. نظرت إليها متعجبًا وسألتها: "ماذا بك؟". ردت علي بكلماتٍ متقطعةٍ ودموعُها تسيلُ أنها اكتشفت اختفاءَ مائتي دولارٍ وسلسلةِ نفرتيتي

الفضيةِ التي أهديتُها لها من حقيبةِ يدِها، ومنطقي لا يمكن أن يكون أحدٌ أخذهم سوى المراكبيِّ لأننا لم نقابلْ غيرَه طوالَ الرحلةِ. نظرت إليها نظرةَ المنتصرِ وقلت لها: "انسي هذا الأمرَ ودعينا نستمتعُ بالعشاءِ اللذيذِ". قاصدا أنني أنتصرت في معركة الأراء.

لم تَمْضِ سوى ساعةٍ واحدةٍ، وكنتُ أعتقد أنَّ جوليا غَطَّتْ في نومٍ عميقٍ، حتى وجدتُ الأموالَ المفقودةَ والسلسلةَ الضائعةَ على أرضيةِ الغرفةِ، ويبدو أنها سقطتْ منها دون أن تدري. هممتُ أن أوقظها من نومها، فإذا بي أجدها لم تغفل لها عينٌ بعد. وعندما أخبرتها أنني وجدتُ الدولاراتِ والسلسلةَ المفقودةَ، أحسستُ أنَّ روحها قد رُدَّتْ لها، وأنها على يقينٍ من حدسها في هذا الصعيديِّ الأسمرِ البريء. وقالت لي: "إنَّ معاركَ المشاعرِ لا ينتصر فيها سوى أصحابِ النوايا الحسنةِ".

حكايات أخرى

فريدريك

بالرغم من صدق رواياتي السابقةِ، لكنني كنت أقصد منها مغزىً أعمقَ مما تبدو. تعمدت أن أذكر أسماءَ مدنٍ كثيرةٍ وجنسياتٍ مختلفةٍ وأشخاصٍ غريبينَ لأبعث برسالةٍ مقصودها أن المشاعرَ الإنسانيةَ الجميلةَ لا تعرف وطنًا أو جنسًا أو دينًا. هي تحتاج دائمًا أن نسترجعها ونقويها ونتمسك بها، ومن الغريب أنها دائمًا كامنةٌ داخلنا ولا يحتاج استرجاعها سوى أن نخرج من قفصِ المادياتِ والوحدانيةِ. هذه المشاعرُ بسيطةٌ وساذجةٌ وغيرُ مكلفةٍ. هنا تحضرني روايةٌ أخرى صادقةٌ أيضًا.

في العامِ ١٩٨٨ ومع بدايةِ بعثتي إلى ألمانيا الغربيةِ في ذلك الحين، كنت فعلاً مصنفًا بأنني أفقرُ واحدٍ في ألمانيا، حيث إن راتبي الذي أتقاضاه من المكتبِ الثقافيِّ المصريِّ كان أقلَّ من نصفِ الحدِّ الأدنى للأجورِ في ألمانيا. لم أشعر بأيِّ نقصٍ تجاه الجميعِ ولم تعوقني عن أن أحيا مثلَ جميعِ الألمانِ. كانت قد نشأت علاقةٌ إنسانيةٌ جدًا بيني وبين إحدى المرضى التي كانت في حوالي الخامسةِ والخمسينَ من عمرها وكنت أنا في مقتبلِ الثلاثينياتِ.

كل يومٍ أمرُّ عليها كانت تطلب مني أن أُحْضِـر لها أيَّ شيءٍ عن مصر، طوابعَ بريدٍ أو نقودٍ أو كروتَ بوستالٍ عن مصر، وتطلب مني أن أقصَّ عليها حكاياتٍ مصريةٍ. ولأن وقتي في العملِ كان لا يسمح بأن أطيل البقاءَ معها، كانت تطلب مني أن آتي في المساءِ لأقضي أطولَ وقتٍ معها. بدأت أتردد عليها في المساءِ مراتٍ عديدةٍ حتى بدأت أشعر أن الممرضاتِ بدأن في التأولِ وأشعر بنظراتٍ مريبةٍ منهن. سألت إحداهن وكانت قريبةً إلى نفسي عما تتأول الأخرياتُ عن المريضةِ. قالت لي إن كثيرين من المهاجرين من دولِ العالمِ الثالثِ يعملون علاقاتٍ مع سيداتٍ أكبرَ منهم سنًا بغرضِ الزواجِ والحصولِ على الجنسيةِ الألمانيةِ، ونحن نكره هؤلاء الرجالَ الوصوليينَ وأعتبرناك منهم وكنا نظنك غيرَ ذلك. طبعًا هذه الكلماتُ خلقت شرخًا بيني وبينهن، وأنا تعمدت أن أقطع علاقتي بالمريضةِ وأتجنبها بقدرِ الإمكانِ حتى كان اليومُ السابقُ على خروجها من المستشفى. ألحت عليّ أن أقابلها في نفسِ اليومِ مساءً. سألتني بإلحاحٍ عن سببِ انقطاعي عنها، فقصصت عليها القصةَ كما نقلتها لي أنيتا بالضبط. بكت المريضةُ بكاءً شديدًا واعتذرت لي عما سببته لي من قلقٍ واضطرابٍ في العملِ، ثم صمتت وتركتني أرحل.

في عطلةِ نفسِ الأسبوعِ، فوجئت أن أنيتا اتصلت بي في سكني وطلبت مني أن أقابلها بقسمِ الجراحةِ وأننا سوف نتناول الغذاءَ في مكانٍ ما لم تسميه. قابلت أنيتا وذهبنا بسيارتها إلى إحدى القرى ودخلنا إلى منزلٍ صغيرٍ جميلٍ، وفوجئت أن صاحبةَ المنزلِ هي مريضتي ساندرا. كانت صدمةً لم أفهم مغزاها حينها، وبعد الترحيبِ وشربِ كؤوسِ العصيرِ، قامت ساندرا بعرضِ بعضِ صورٍ لها على البروجكتور للرحلات لها إلى دولٍ كثيرةٍ بالهندِ وإسبانيا والبرازيل وأخيرًا في مصر. كانت صورها في مصر يصحبها شابٌ صغيرٌ بدا شكله مألوفًا لي وعرفتني أنه ابنها فريدريك. كانت المفاجأةُ أنها كانت ترى شبهًا كبيرًا بيني وبين ابنها فريدريك في الكلامِ والمشيِ والحركةِ. مات ابنها فريدريك قبل لقائنا هذا بسبعةِ أشهرٍ في حادثِ سيارةٍ بالدنماركِ، وبمجرد أن رأتني أرجعت إلى ذاكرتها هذا الابنَ المفقودَ. وهذه هي كل الروايةِ. تأثرنا نحن الثلاثةُ وواسيناها أنا وأنيتا، ثم أكلنا الغذاءَ من لحمِ الأرنبِ البريِّ مع البطاطسِ البوريةِ والسوسِ اليونانيِّ الحارِّ.

مجيدة

احتفالًا برأس السنة من العام ١٩٩٠، ذهبنا جميعًا من يعملون في قسمِ الجراحةِ بجامعةِ أسن إلى إحدى المطاعمِ الكوريةِ للعشاءِ والسهرِ والمرحِ. كنت قد ذهبت بصحبةِ الطاهيةِ التركيةِ، وشاء القدر أن أجلس بجوارِ أنيتا كما تمنيتُ، ولم يكن هناك من الأجانبِ سواي والطاهيةِ التركيةِ وإحدى الممرضاتِ المغربياتِ. كانت مجيدة تحمل الجنسيةَ الألمانيةَ، وكان والدها من المهاجرين المغاربةِ الأوائلِ بعد انتهاءِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ. عاشت مجيدة حبيسةَ الجوِّ المغربيِّ الشرقيِّ كما هو معروف عن المغاربةِ التقليديينَ. كانت الفتاة تحمل كل سماتِ الجمالِ الشرقيِّ؛ الشعر الأسود الكالح، العيون الواسعة الناعسة، والجلد القمحي اللامع. كانت وسط الألمانياتِ الشقراواتِ مثل قطعةِ الشوكولاتةِ الساخنةِ وسط كعكةِ الآيس كريم المجمدةِ. وسط جوِّ الاحتفالِ خيم على الحوارِ أحداثُ سقوطِ حائطِ برلين والوحدةِ الألمانيةِ. تباينت الآراء، كان هناك خوفٌ دفينٌ أن يهجم الألمانُ الشرقيونَ

على سوقِ العملِ في ألمانيا الغربيةِ مما قد يؤثر على أجورِ العمالةِ كما أثرت هجرةُ العمالةِ التركيةِ من قبل أبان هجرةِ الستينياتِ. دافعت قطيمة الطاهيةُ التركيةُ عن الأتراكِ ودورهم في إعادةِ بناءِ الدولةِ الألمانيةِ الحديثةِ كما دافعت عن تمسكِ أهلِ بلدها بتقاليدهم الإسلاميةِ وسط الجوِّ الغربيِّ دون خللٍ في الكيانِ الاجتماعيِّ. طوال الجلسةِ كانت مجيدة صامتةً لا تجد ما تقوله، ولكن على الرغم من صمتها كانت الأكثر إثارةً عند هزِّ شعرها الأسود الطويل وحركةِ عينيها الخبيثةِ التي تقشعر جسدَ من ينظر إليها. اشتدت حدةُ النقاشِ بالرغم من الاتفاقِ الباطنِ في نفوسِ الجميعِ أن وحدةَ ألمانيا هي خطوةٌ على طريقِ بزوغها كقوةٍ عظمى جديدةٍ في القطبِ الأوروبيِّ. لم تظهر مجيدة رفضها أو قبولها لما يقال، ولكن ما كان يظهر من جمالِ جسدها وعنقها كان محطَّ اتفاقٍ من الجميع. خرج الحوار من سياجِ السياسةِ والاقتصادِ إلى عاداتِ الشعوبِ وتقاليدهم. للمرة الأولى نسمع صوتَ مجيدة الناعم المثير الذي انبرى يدافع عن المرأةِ الشرقيةِ كزوجةٍ مطيعةٍ وتحفظها واهتمامها بالأسرةِ والأولادِ وتربيتهم وتعليمهم. لم

تعجب الكلمات أنيتا المتحررة المتمردة، وتساءلت أي تعليمٍ هذا في الشرق وأنتم تعيشون في غياهبِ الجهلِ بزعمها تقاليد شرقية وأي تربيةٍ هذه وأنتم تتقاتلون في الشوارع وتأتون إلى الغرب لتقودوا العصاباتِ كما يحدث في فرانكفورت. دعك من هذا يا مجيدة وما أجمل أن تقومي الآن لتقدمي لنا فاصلًا من الرقصِ الشرقيِّ الجميلِ بجسدك وفستانك المثيرين. ما أن نطقت أنيتا بهذه الكلمات حتى تغير وجهُ مجيدة واحمرت وجنتاها واندفعت النيرانُ من عينيها ممزوجةً بدموعٍ حارةٍ أثارت شفقةَ جميعِ الحاضرين وصمتهم. هنا تدخلت فطيمة بكياسةٍ وحكمةٍ شديدين قائلة: لا سأقوم أنا بهذه الرقصةِ الشرقيةِ لأن هذا الفن أصله تركيٌّ ومن اقتبسه هم المصريون والمغاربة. ضحك الحاضرون وصفقوا لفطيمة ليشجعنها على تأديةِ الرقصةِ مما لطف الجوَّ إلى حدٍّ ما. ضحكت فطيمة أيضًا وتهربت من وعدها وقالت عليكم أن تأتوا بفرقةٍ موسيقيةٍ شرقيةٍ تعزف لي معزوفةَ الرقصةِ. في هذه اللحظات ملت على أذنِ أنيتا وقلت لها أنت أخطأتِ في حقِّ مجيدة ويجب أن تعتذري لها. نظرت أنيتا لي شاردةً وظننت أنها في حيرةٍ

من أمرها. فعلت أنيتا ما لم يتصوره أحد. خلعت حذاءها وصعدت على المنضدةِ بفستانها القصير وقالت أنا من سيرقص الرقصةَ الشرقيةَ المثيرةَ لأثبت لكم أننا أنجح منهن حتى في الرقصِ الشرقيِّ. فعلًا فعلت أنيتا ورقصت رقصةً شرقيةً أثارت كل من في المطعم حتى تجمع جميع الزبائن وعمال المطعم في دائرةٍ مستديرةٍ حول منضدتنا وأنيتا ترقص رقصةً من يشاهدها يعتقد أنها خريجةُ مدرسةِ العوالمِ في شارعِ محمد علي بالقاهرة.

رحلةُ القمرِ

مازلتُ أتذكرُ ذلك اليومَ من أيامِ صيفِ ١٩٦٩ عندما كنتُ في الصفِّ السادسِ الابتدائيِّ، أجلسُ أمامَ التليفزيونِ النصرِ الأبيضِ والأسودِ وأشاهدُ هبوطَ رائدِ الفضاءِ نيل أرمسترونج ورفيقهِ على سطحِ القمرِ في مشهدٍ يُبثُّ مسجلاً في اليومِ التالي لحدوثهِ. كانت مصر كلها جالسةً كالمشلولةِ البلهاءِ ما بين غيرِ مصدقةٍ وغيرِ مستوعبةٍ، والغالبيةُ مكذبةٌ وتدعيهِ نوعاً من أعمالِ الفانتازيا الأمريكيةِ الكاذبةِ لخداعِ العالمِ. كنتُ أعتدتُ أن أذهبَ لصلاةِ الجمعةِ بمسجدِ أبو الفدا بحيِّ الزمالكِ بالقاهرةِ لأنَّ إمامَ المسجدِ هو الأستاذَ محمد صلاح كان هو أيضا مدرسَ اللغةِ العربيةِ في مدرستنا. في خطبةِ تلك الجمعةِ، مدحَ الرجلُ العلمَ والعلماءَ وكيفَ أنَّ اللهَ سخرَ الكونَ في خدمةِ البشرِ وجعلهُ أرضاً خصبةً ليرتجلَ فيها الإنسانُ وينعمَ بخيراتِه. سعدتُ أنا وزميلي بالفصلِ عبدالله بهذه الخطبةِ التي أثلجت قلوبَنا وثبتت اعتقادَنا بأنَّ ما شاهدناهُ حقيقةٌ وأنَّ للإنسانِ أن يفخرَ بعقلِه بلا غرورٍ.

في العامِ ١٩٨٩، وبعدَ مرورِ عشرينَ عاماً بالتمامِ، تقابلتُ أنا وعبدالله في أغربِ موقفٍ لصديقينِ، حيث كنتُ طالبَ بعثةٍ لأبحاثٍ علميةٍ على سرطانِ القولونِ باستخدامِ جهازٍ روسيٍّ جديدٍ في منافسةٍ تقليديةٍ للجهازِ الأمريكيِّ المشهورِ من إنتاجِ أثيكون. عبدالله ابنُ حيٍّ مصر القديمةِ هو الآن إمامُ مسجدِ مدينةِ مولهايم، المسجدِ الوحيدِ في المنطقةِ كلها، ويبعدُ عن مدينةِ أسن حوالي ١٢ كيلومتراً. عبدالله التحقَ بكليةِ الهندسةِ جامعةِ الأزهرِ ولم يوفقْ في الدراسةِ وأُتهِمَ أيامَها أنَّه شيوعيٌّ ملحدٌ لأنَّه كان على علاقةٍ بحركةِ الطلابِ المناهضةِ لحكمِ الساداتِ في ذلك الوقتِ. هَجرَ عبدالله مصر إلى ألمانيا والتحقَ بمعهدٍ صناعيٍّ وحصلَ على الدبلومةِ، ولأنَّه كان رساماً موهوباً، عملَ في قسمِ التصميماتِ في شركةِ إى جى للأجهزةِ المنزليةِ، ومتزوجٌ من سيدةٍ ألمانيةٍ فاضلةٍ ولهما طفلانِ. تقابلنا ولم نصدقْ أنفسَنا، ثم توطدت العلاقةُ جداً وكنا نتقابلُ مرتينِ في الأسبوعِ، يومَ الجمعةِ مساءً ويومَ الأحدِ على الغداءِ.

في نهايةِ عامِ ١٩٨٩، كان الاتحادُ السوفيتيُّ قد سقطَ بعدَ سقوطِ أفغانستانَ في يدِ الإسلاميينَ، وبدأَ سقوطُ حائطِ برلين، وبدأَ الغربُ والشرقُ الأوروبيُّ يلتحمانِ من جديدٍ، وبدأَ الشرقُ الأوسطُ والعالمُ الثالثُ ينقسمُ هو على نفسهِ. في هذه الأيامِ، أكدَّ عليَّ عبدالله حضورَ صلاةِ الجمعةِ القادمةِ لأنَّ الخطيبَ سيكونُ أشهرَ الشيوخِ المصريينَ في أوروبا وسيحضرُ من مدينةِ فرانكفورت، وكلُّ المصريينَ في المنطقةِ سيأتونَ لسماعِ خطبتهِ. فعلاً، كان المسجدُ مزدحماً جداً بالمصلينَ، وبدأَ الرجلُ خطبتهُ بالدعاءِ للمسلمينَ في كلِّ مكانٍ، ومن منبرهِ أعلنَ الرجلُ قيامَ الدولةِ الإسلاميةِ في العالمِ على يدِ تنظيمِ مجاهدي أفغانستانَ، وبدايةَ النهايةِ للغربِ الكافرِ، وانحسارَ وهمِ العلمِ والتكنولوجيا والماديةِ كلها على يدِ المؤمنينَ في أفغانستانَ وكازاخستانَ وباكستانَ وإيرانَ وإخوانِنا المجاهدينَ في مصر الذينَ يحاربونَ السلطةَ الكافرةَ هناك. لم أصدقْ ما أسمعُ، وخرجتُ أنا وآدم (صديقٌ ألمانيٌّ مسلمٌ) في منتصفِ الخطبةِ، ونظرَ الشيخُ الجليلُ إلينا بغضبٍ شديدٍ، وأحسستُ أنَّ عبدالله في حرجٍ شديدٍ مني ومن الشيخِ في نفسِ الوقتِ. بعدَ الخطبةِ، تقابلتُ مع

عبدالله وكنتُ أعتقدُ أنَّه سيكونُ غاضباً مني، ولكنني وجدتُه يتأسفُ لي وقال لي: لم أكنْ أتخيلْ أن تكونَ الخطبةُ بهذا القبحِ والعنفِ، ولكنَّ هذا الرجلَ سقطَ من نظري لأنني أعلمُ حقيقتَه جيداً، فهو متزوجٌ زوجةً لبنانيةً وأخرى ألمانيةً، وهذا ضدَّ القانونِ المحليِّ، وأولادُه هنا في ألمانيا لديهم الجنسيةَ الألمانيةَ ويعملونَ في شركاتِ سياحةٍ لتصديرِ السياحةِ إلى أوغندا، وأنَّ أكثرَ منافسٍ له هي شركاتُ السياحةِ المصريةِ في فرانكفورت. لم أهتمْ بالمبرراتِ، وتذكرتُ الأستاذَ محمد صلاح إمامَ مسجدِ أبو الفدا، ودعوتُ له من قلبي.

نيكول

في سهوي هذا تذكرتُ أيضًا نيكول، هذه المرأةَ الجميلةَ، رئيسةَ التمريضِ في وحدةِ جراحةِ الكبدِ بمستشفى جامعةِ أسن. هي ليست جميلةً فقط، ولكن أيضًا جسدُها يحملُ أرطالًا من هرموناتِ الأنوثةِ مبعثرةً بين نهدِها وساقيها وخصرِها، ولكنني أنا شخصيًا لم يكن يجذبني إليها سوى لونِ عينيها الواسعتين ذاتِ اللونِ البنيِّ الغامقِ، ولم يثرني أبدًا ما كانت تكشف عنه من بينِ ثدييها.

تذكرتُ ذلك اليومَ الذي ثارت فيه ثورةٌ عارمةٌ أحدثت ضجيجًا شديدًا في غرفةِ المريضةِ تايسون عندما رأتها في حالةِ نزيفٍ شديدٍ بعد عمليةِ استئصالِ تمددٍ في شريانِها الأورطيِّ. رأيتها تصرخ في هير جروس، نائبِ الجراحةِ كبيرِ الحجمِ كثيفِ الشعرِ واللحيةِ، والآخر ينظر إليها منكسرًا لا يقوى على الردِّ. سألتها: "ماذا هناك، فراو نيكول؟" فردت بعصبيةٍ شديدةٍ أن هذا الجراحَ الفيلَ ترك المريضةَ لمشاهدةِ مباراةٍ في كرةِ القدمِ في مسكنِه بالرغم من أنني أنذرته بأن هناك نزيفًا يأتي من بطنِ هذه المسكينةِ، فكان رده أن

مثل هذه العملياتِ يعقبها بعضُ النزيفِ في كل الحالاتِ. أرأيتِ أنها في حالةٍ حرجةٍ الآن، ولا بد من إرسالِها إلى غرفةِ العملياتِ على الفورِ.

حاول هير جروس أن يظهر اهتمامَه بالمريضةِ مدعيًا أنه لن يذعن لصراخِ نيكول، وأنه سيرعى المريضةَ كما يجب. دفعت يده عن المريضةِ وقالت له وهي تسحب سريرَ المريضةِ إلى خارجِ الغرفةِ: "ارفع يدك عن المريضةِ، فقد اتصلت بالاستشاريِّ رفائيلَ وهو منتظرٌ المريضةَ في غرفةِ العملياتِ. أما أنت، فرئيسُ القسمِ منتظرك في مكتبِه."

ما حدث بعد ذلك أن أُنقذت حياةَ السيدةِ تايسون العجوزِ، وتخطت مرحلةَ النقاهةِ بسلامٍ، وهير جروس أوقف عن العمل مدةَ ثلاثةِ شهورٍ ولم يُجدد عقدُه مع المستشفى. بعد أسبوعين من هذه الحادثةِ، قابلت مصادفةً فراو نيكول في إحدى صالاتِ الديسكو وهي ترقص مع زوجِها مرتديةً ثوبًا يكشف عن كميةٍ كبيرةٍ من الجسدِ الفائرِ. شاهدتني أجلس مع صديقي الهنديِّ الوحيدِ، فلوحت لي بيدِها وأرسلت لي قبلةً على الهواءِ، وأنا في ذهولٍ من قدرتِها على الرقصِ وهي تلك العنيدةُ التي أطاحت بالجراحِ الفيلِ.

لورديس عارية

من أكثرِ نقاطِ الخلافِ بين الثقافةِ الغربيةِ والثقافةِ الشرقيةِ بوجهٍ عامٍ، والعربيةِ بوجهٍ خاصٍ، هو النظرةُ إلى جسدِ المرأةِ، والتي لا يمكنُ فهمُها من منظورٍ اجتماعيٍ أو دينيٍ أو فلسفيٍ. هنا تَحضُرني حادثةٌ حدثت لي منذ سنواتٍ طوالٍ ولم أستطع تفسيرَها حتى اليومِ.

في العامِ ١٩٨٩ كنت في جامعةِ إسن بألمانيا الغربيةِ لبحثٍ خاصٍ برسالةِ الدكتوراهِ، وكان جزءٌ من هذه الرسالةِ تجريبيًا، وهي عمليةٌ طويلةٌ معقدةٌ أجريها على الخنازيرِ وتستدعي متابعةً دقيقةً ومركزةً بعد العمليةِ حتى لا يموتَ الخنزيرُ وأفقدَ التجربةَ المجهدةَ. وأكثرَ منها صعوبةً كان الحصولُ على الخنازيرِ من جمعيةِ الرفقِ بالحيوانِ. كانت ترعى حيواناتي في معمل تجارب الحيوانات و كنت أطلق عليه "الزريبةِ" فتاةٌ في عمرِ السادسةِ والعشرينَ، شقراءُ رقيقةٌ فاتنةٌ، وأكثرَ من ذلك كله مخلصةٌ في عملِها إلى أقصى درجةٍ. لاحظت أنها تولي حيواناتِ تجاربي اهتمامًا خاصًا، وتحتضنهم

بحبٍ وتعطيهم مسكنَ الباراسيتامولِ البودرةَ في العشبِ. كنت أستمتعُ جدًا عندما أجلسُ أراقبُها وهي تنظفُهم وتطعمُهم كأنهم أطفالٌ صغارٌ.

في إحدى ليالي الشتاءِ القارسِ كنت قلقًا على إحدى الخنازيرِ من حدوثِ نزيفٍ له بعد العمليةِ التي أجريتُها له في الصباحِ، وعلى غيرِ العادةِ قررت المرورَ عليه عند منتصفِ الليلِ. مررت على كلِّ الزرائبِ فوجدت الحيواناتِ نائمةً راضيةً هانئةً بمن فيهم ذلك الخاصُّ بي. فوجئت أنني لم أجد لورديس راعيةَ الزريبةِ. تجولت بين كلِّ الغرفِ فلم أجدها، وبحركةٍ عفويةٍ فتحت بابَ الحمامِ فوجدتُها أمامي تستحمُّ عاريةً تمامًا كما ولدتها أمُّها. لم أجرؤ سوى على النظرِ إلى عينيها للحظةٍ، ثم أغلقت البابَ وهرولت مسرعًا خارجَ المبنى إلى سكني داخلَ المستشفى وأنا في غايةِ الحرجِ وأيضًا القلقِ مما سببته لها من إحراجٍ وخجلٍ. لم أستطع النومَ ليلتَها بسببِ التفكيرِ في غضبِها مني لما حدث.

ماذا كان ردُّ فعلِها؟ فوجئت أنها اتصلت بحارسةِ السكنِ صباحَ اليومِ التالي، وكان يومَ السبتِ العطلةِ، وطلبت منها أن تخبرني أنها

تريد مقابلتي في موضوعٍ هامٍ وأنها تنتظرني في كافتيريا المستشفى. ذهبت إليها وأنا مرتاعٌ من ردِّ فعلِها، فإذا بي أجد إنسانةً في غايةِ اللطفِ ويكسو وجهَها حمرةُ الخجلِ الشديدِ، وتبدي لي أسفًا شديدًا جدًا لنسيانِها غلقَ بابِ الحمامِ وما سببته لي من إحراجٍ وإساءةٍ لرؤيتي ما قد لا تبغي عيناي رؤياه. وأنني إذا لم أغفر لها خطأَها فمن الممكن أن تطلب نقلَها إلى الزريبةِ الخاصةِ بتجاربِ قسمِ الأورامِ في مبنى آخرَ.

انتحار لورديس

علاقتي بالحياةِ علاقةٌ سطحيةٌ جدًا، بل أحيانًا أحتقرُها وأتكبرُ عليها. أتعاملُ معها كمشاهدٍ لمباراةٍ بين ملايينَ من البشرِ يتصارعون على كرةٍ صغيرةٍ منفوخةٍ بهواءِ زفيرٍ لا أكثر. بالرغم من ذلك، لم أتقبلْ أبدًا فكرةَ الموتِ. لا أفهمُه ولا أصدقُه وأجدُه نهايةً غيرَ مناسبةٍ لصراعٍ مريرٍ لحياةِ البشرِ في الكونِ.

الآنسةُ لورديس، راعيةُ الزريبةِ كما كنتُ أطلقُ عليها، كان لها فضلٌ كبيرٌ في نجاحِ تجاربي على الخنازيرِ في ألمانيا. هي فتاةٌ شقراءُ الشعرِ، جميلةٌ، عيناها زرقاوتان، والنظرُ إليهما طويلًا يمنحُك الإحساسَ بالنومِ المخدرِ. طولُها لا يزيدُ عن ١٦٠ سم ووزنُها حوالي ١٢٠ رطلًا، وكانت مع قصرِها ووزنِها خفيفةَ الحركةِ ونشيطةً. مشكلتي معها غريبةٌ، فبينما أنا لا أهتمُّ إلا بالفكرةِ والنتيجةِ والرؤيةِ في مجملِها، كانت هي عاشقةً للتفاصيلِ، فضوليةً جدًا لمعرفةِ كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ودقيقةٍ في تحقيقِ كلِّ ما يُطلبُ منها. كنت أتململُ منها في تعاملي معها عند رعايةِ خنازيري بعد العملياتِ. مع ذلك،

لم أكن أجدُ سواها لأقضي معها ليالي الشتاءِ الطويلةِ في أمسياتِ نهايةِ الأسبوعِ في أحاديثِ ورواياتٍ طويلةٍ، وكنت أستمتعُ جدًا باهتمامِها بتفاصيلِ أحاكيها. كنت أتعجبُ من اهتمامِها وحنانِها تجاهَ حيواناتِها وكيف تطعمُهم وتسقيهم وتعطيهم الأدويةَ في مواعيدِها، وخاصةً المسكناتِ، حتى أن ليس هناك أيٌّ من الخنازيرِ العشرةِ حدث له أيُّ مضاعفاتٍ بالرغم من صعوبةِ ودقةِ العملياتِ.

كان الأسبوعُ الأخيرُ من شهرِ رمضان عندما انتهت فترةُ الجزءِ التجريبيِّ وعدت ثانيةً إلى قسمِ جراحةِ الجهازِ الهضميِّ لاستكمالِ البحثِ على المرضى. عندما تركتُ القسمَ قبل ثلاثةِ أشهرٍ، كانت الغرفةُ الأولى على اليمينِ هي غرفةَ التمريضِ حيث الاستراحةُ والأكلُ والمشروباتُ والقهوةُ. عندما عدتُ من تجاربي، لم أجدْ بالغرفةِ أيًّا من الأثاثِ السابقِ ولا الثلاجةَ وماكينةَ القهوةِ والميكرويفِ. فسألتُ إحدى الممرضاتِ، فقالت لي: لقد نقلوا كلَّ محتوياتِ الغرفةِ إلى غرفةٍ أخرى مؤقتًا في نهايةِ القسمِ. ولماذا؟ حتى نراعي مشاعرَ المسلمين مثلك أثناءَ الصيامِ. وكيف علمتِ أننا

في رمضانَ وأنني صائمٌ؟ قالت: أخبرتنا لورديس بذلك، بل جاءت بنفسِها منذ يومين وشاركتنا في نقلِ الفرشِ والأجهزةِ. لورديس تملكُ من العواطفِ والحنانِ والاهتمامِ بالآخرين ما يسعُ الكونَ كله، ولم تكن أبدًا تنتظرُ الاهتمامَ بها أو مبادلتَها نفسَ العواطفِ.

في صباحِ يومٍ شتاءٍ باردٍ كئيبٍ، ونحن في الاجتماعِ اليوميِّ للقسمِ، أعلن هير أيجلر رئيسُ القسمِ أسفه وعزاه لانتحارِ الآنسةِ لورديس في غرفتها بقسمِ التجاربِ الحيوانيةِ بحقنِ نفسها بجرعةٍ كبيرةٍ من مخدرِ العملياتِ. لورديس كانت أرقَّ من أن تتعاملَ مع قهرِ البشرِ وتقلبِ الزمنِ وقسوةِ تفاصيلِ الحياةِ. سلاحُها كان الحبَّ والجمالَ والعطاءَ، ويبدو أنها أسلحةٌ فاسدةٌ في حربٍ ضروسٍ.

صراع القطبين

في خريفِ عامِ ١٩٩٠، وبالرغمِ من سقوطِ حائطِ برلينَ وبدايةِ سقوطِ الاتحادِ السوفيتيِّ وانتهاءِ الحربِ الباردةِ في العالمِ كلِّه، إلا أنني وقعتُ في أتونِ هذه الحربِ بمفردي. كنتُ على وشكِ الانتهاءِ من الجزءِ التجريبيِّ في رسالةِ الدكتوراهِ، وكانت تشتملُ على عمليةٍ طويلةٍ مجهدةٍ أجريها على الخنازيرِ تحت إشرافِ الاستشاريِّ الألمانيِّ أربرشت. صحيحٌ أن عملي في حقلِ الخنازيرِ كان سببَ نشأةِ علاقتي بالآنسةِ لورديسَ الشقراءِ راعيةِ الزريبةِ، إلا أن التجربةَ نفسها كانت تستغرقُ ما بين ٦ إلى ٨ ساعاتٍ أخرجُ منها لا أرى أمامي حتى عيونَ لورديسَ الزرقاءِ. كانت التجربةُ في مجالِ مقارنةِ استخدامِ أجهزةِ توصيلِ الأمعاءِ ما بين جهازٍ روسيٍّ مستحدثٍ وجهازٍ أمريكيٍّ عتيقٍ يغمرُ السوقَ. كانت التجربةُ تسيرُ بقوةٍ في مصلحةِ الجهازِ الروسيِّ، ونحنُ على وشكِ رصدِ النتائجِ. لا أدري من أين عرفَ مندوبُ الشركةِ الأمريكيةِ بنتائجِ التجربةِ مسبقًا، وفوجئتُ به يأتي لمقابلتي في قسمِ عملياتِ التجاربِ ويتوددُ لي ثم يعرضُ عليَّ صفقةً كبيرةً. قال لي: "أنا أعرفُ أنك تواجهُ مشاكلَ في

الحصولِ على الخنازيرِ من جمعيةِ الرفقِ بالحيوانِ، فأنا على استعدادٍ أن آتيَ لك بموافقةٍ بعشرةِ خنازيرَ لتمدَّ أجلَ التجربةِ مدةً أطولَ، وأيضًا سوف أرتبُ لك رحلةً إلى الولاياتِ المتحدةِ تزورُ مصانعَنا هناكَ وتقومُ بسياحةٍ لمدةِ ثلاثةِ أسابيعَ تخرجُ من جوِّ العملِ الشاقِّ." الصفقةُ مغريةٌ جدًا، ولكن حجمي في المؤسسةِ وكوني غريبًا من العالمِ الثالثِ لا يجعلني أغامرُ بعقدِ مثلِ هذه الصفقاتِ. لم أعطه جوابًا وأنا في حيرةٍ من أمري بين الإغراءِ والخوفِ من اللعبِ مع العمالقةِ. كتمتُ الأمرَ ثم نسيته حتى كان بعد عشرةِ أيامٍ عندما جاءني هير أربرشت بشوشًا وقال لي: "هير عبد اللطيف، عندي مفاجأةٌ لك، فقد تمكنتُ من الحصولِ على خنازيرَ جديدةٍ لك وتستطيعُ أن تستمتعَ بخنازيرِك وبرفقةِ لورديسَ الشقراءِ الجميلةِ، ولكن للأسف سأسافرُ أنا مع زوجتي لقضاءِ إجازةٍ سياحيةٍ في أمريكا " وصلتني الرسالةُ، فقد تحالفَ القطبينِ الأعظمينِ كلٌّ من أجلِ مصلحتِه، وعلى أنا إنسانِ العالمِ الثالثِ أن أعملَ وأعملَ فقط ليعيشَ ويستمتعَ أقطابُ العالمِ الأولِ. تبا لهم.

هير أوليفيه

لم يكن هير أوليفيه جراحًا بارعًا، ومع ذلك كان ألمانيًا عنصريًا للغاية، يرى أن ألمانيا فوق الجميع، وأن الألمان هم الجنس الأنقى والأفضل بين البشر. كان يشعر بالحنق عندما يرى طبيبًا من العالم الثالث مثلي يعالج مرضى من الجنس الألماني النقي، فهذا ظلمًا لهم. كان هير أوليفيه ضخم الجثة جدًا، يعشق الأكل والنساء. تعرفت على زوجته التي كانت تعمل في قسم التصوير الطبي وهاوية لعزف الموسيقى النحاسية، ودعتني عدة مرات لحضور حفلات تعزف فيها موسيقى الحجرة. كانت شخصية رقيقة صغيرة الحجم، حتى أنها لا تزيد عن حجم ذراع زوجها أوليفيه. بالرغم من بعض الصداقة بيني وبين أوليفيه، إلا أنه لم يكن يخفي كرهه للأجانب، وعلى وجه الخصوص العرب. حتى كان صباح باكر من أيام شتاء العام ١٩٨٩، وأثناء خروجي من شقتي، رأيت هير أوليفيه يخرج من شقة جارتي الممرضة التي تعمل في قسم الغسيل الكلوي. ما كادت عيني تقع على عين أوليفيه وهو خارج من باب

عشيقته، حتى رأيت هذا العملاق يبدو وكأنه يتلاشى ويتحول إلى فأر صغير. ومع ذلك، حاول أن يظهر شرًا من عينيه، وأثناء هبوطنا بالمصعد، قال لي وهو في ضيق وانكسار شديدين: "هير عبد اللطيف، أنت لم ترَ شيئًا... اتفقنا؟". بعد هذا الموقف، تغيرت علاقة هير أوليفيه بي؛ لم يعد يراني أجنبيًا، ولم يعد يرى أي غضاضة في مباشرتي للمرضى الألمان، بل أصبح يعبر أمام الجميع أن التنوع الثقافي بين الألمان والعرب يثري المجتمع، ووصل إلى أن صرح في إحدى السهرات أن الحضارة المصرية فاقت بمراحل حضارة الجنس الآري العملاق. إنها السياسة والمصلحة تهزم أعتى القيم والمبادئ.

عُرْسُ ابْنَةِ البروفيسورِ

جلستُ في أحدِ الأروقةِ بفندقٍ من فنادقِ القاهرةِ الفخمةِ التي يُطلقُ عليها صاحبةُ الخمسِ نجومٍ. كان جليسي والدَ العروسِ التي كانت تُزفُّ هذه الليلةَ إلى عريسِها في يومٍ يُحتسبُ من أهمِّ أيامِ حياةِ كلِّ فتاةٍ. بينما كنا نتحادثُ هربًا من ضوضاءِ القاعةِ، جاء متعهدُ حفلِ الزفافِ واقتربَ من صديقي وأعطاه ورقةً صغيرةً في يدهِ وعلى وجههِ علاماتُ السرورِ والأدبِ الجمِّ. فتح صديقي شنطةَ يدٍ صغيرةً وأخرجَ منها رزماتٍ من الجنيهاتِ وأعطاها لمتعهدِ الحفلِ، فأخذها هذا الأخيرُ وانحنى للرجلِ شاكرًا ودعا للعروسِ بتمامِ السعادةِ وخيرِ الإنجابِ. نظر إلى صديقي وقال: "تخيل أن هذا الأراجوزَ المخنثَ أخذ مني خمسين ألفَ جنيهٍ ليعطيها للطبالين والزمارين والراقصين الذين أحضرهم ليعملوا هذا الضجيجَ المنحطَّ ويتنططوا ويرقصوا كأنهم في زارٍ." قال لي صديقي، أستاذُ الجامعةِ ورئيسُ قسمِ الأدبِ المعاصرِ في كبرى جامعاتِ مصر، إن هذا المبلغَ يساوي ما تقاضاه من مستهلِّ وظيفتهِ الجامعيةِ ولمدةِ عشرِ سنواتٍ كاملةٍ. لم يظهر الرجلُ

استياءه وهو يقول كلماته هذه لأن ليلةَ العمرِ لابنتهِ تستحقُّ كلَّ شيءٍ. لم أوافقه ونظرتُ إليه باستياءٍ وكأنني من دفع هذه الأموالِ الباهظةِ. قلت له: "في العامِ ١٩٨٨ سافرتُ إلى ألمانيا لأبدأ بعثتي هناك. كان المشرفُ الألمانيُّ الذي يقتربُ من الستين من عمرهِ من أشهرِ جراحي ألمانيا وخاصةً في زرعِ الأعضاءِ. سألتُ أحدَ أصدقائي المصريين عن أيِّ هديةٍ آخذها معي لأقدمها له عند وصولي، فقال لي إن الرجلَ يعشقُ المنحوتاتِ الخشبيةِ. ذهبتُ إلى خانِ الخليلي واشتريتُ شيشةً عربيةً مصنوعةً من الخشبِ تحملُ سماتِ التقليدِ والفنِّ العربيِّ معًا. بعد ثلاثةِ أيامٍ من وصولي دعاني الرجلُ إلى حفلِ استقبالٍ في بيتهِ ودعا معي معظمَ أطباءِ القسمِ. البيتُ الصغيرُ مصنوعٌ بالكاملِ من الخشبِ على مساحةِ ١١٥ مترًا وباقي الأرضِ حوالي ٩٠٠ مترٍ بها أجملُ أنواعِ الزهورِ والورودِ في تنسيقٍ فنيٍّ رائعٍ. أخذني الرجلُ في جولةٍ داخل منزلهِ الذي يتكونُ من دورين وكله عبارةٌ عن تحفٍ خشبيةٍ وأغلبها من صنعِ يدهِ. ما أن انتهينا من ذلك حتى سألته متى وكيف تعلم نقشَ الخشبِ والنجارةِ. قال لي: "تعالَ أقول لك السرَّ." أخذني إلى البدروم وفتح غرفةً صغيرةً مفروشةً بسريرٍ صغيرٍ عتيقٍ وصوانٍ (دولابٍ) يشبهُ

صندوقَ العفشِ عند أهلِ الصعيدِ وعدةَ كراسٍ ومنضداتٍ في أحكامٍ مختلفةٍ. قال لي بفخرٍ ظاهرٍ: "عندما قررتُ الزواجَ كنتُ طالبًا في كليةِ الطبِّ وكانت ألمانيا ما زالت تنوءُ تحت توابعِ الحربِ العالميةِ. أحببتُ فتاتي وهي طالبةٌ بالثانوي وقررنا الزواجَ ونحن لا نملكُ شيئًا. أجرنا غرفةً فوق أحدِ المنازلِ وذهبتُ إلى إحدى ورشِ النجارةِ لأتعلمَ صناعةَ الموبيليا وكنا نتجولُ أنا وفتاتي في شوارعِ برلين لننتقي الأخشابَ الصالحةَ من المنازلِ المتهدمةِ من جراءِ القذفِ. استطعتُ أن أصنعَ غرفةَ نومٍ كاملةً وغرفةَ معيشةٍ وبعضَ الأثاثِ لطفلنا الأولِ. في نفس الوقت تعلمتْ فتاتي زراعةَ الزهورِ التي تُستخدمُ في صناعةِ العطورِ. مرت السنواتُ وفي كل منزلٍ ننتقلُ إليه أخذتُ معي هذا الأثاثَ الذي يحملُ أجملَ ذكرياتِ زفافي وزواجي وعشقتُ مهنةَ النجارةِ والنحتِ على الخشبِ. زوجتي الآن تملكُ أكبرَ مصنعٍ للعطورِ في شمالِ الراين وما زالت تعشقُ زراعتها بنفسها."

هذه نقرةٌ وتلك نقرةٌ

اليوم تذكرتُ موقفًا مثيرًا حدث لي في احتفال رأس السنة من العام ١٩٨٩. كان قسم الجراحة بجامعة أسن قد حجز أماكن لكل أعضاء القسم من أطباء وتمريض وعمال (٣٤ شخصًا) في أحد المطاعم الكورية في قرية على بعد ٣٠ كيلومترًا من أسن. كانت الترتيبات في الحفلات السابقة أن أنيتا، أقرب الممرضات إلي، تؤكد على حجز وجبة لي مخصوص ليس بها لحم الخنزير، وأن أرتب مع أحد الزملاء أو الممرضين الذهاب معه بالسيارة. لا أتذكر لماذا في هذه الحفلة بالذات لم تترتب الأمور جيدًا. في الساعة السابعة مساءً يوم ٣١ ديسمبر، اتصلت من مسكني بالقسم لأبحث عن أي شخص يقلني إلى الحفل فلم أجد غير الطابخة التركية، وفهمت منها أنها سوف تذهب إلى الحفل بصحبة هير ليوتكن، رئيس وحدة زراعة الكبد، في تمام الثامنة. طلبت منها أن يمروا علي في مسكني لأذهب معهم، وأنا في تعجب لأنني خلال السنة الماضية لم أرَ هير ليوتكن سوى بدراجة ذهابًا وإيابًا من المستشفى. حضر

هير ليوتكن والسيدة قطيمة الطابخة إلي في سيارة فيراري فخمة جدًا، وعرفت من هير ليوتكن أنه من هواة سيارات السباق ولديه غيرها سيارتان بورش وأخرى لا أذكر ماركتها. وصلنا إلى الحفل، وطوال الطريق كنت أتمنى أن أجد المقعد المخصص لي بجوار أنيتا الرائعة. فعلاً وجدت ما تمنيته، ولكن بمجرد أن شاهدتني أنيتا حتى فوجئت بها تنهار في مقعدها وتخبط رأسها بيدها ويبدو عليها التوتر الشديد. سألتها: "ماذا هناك يا أنيتا؟" قالت لي: "نسيت أن أحجز لك وجبة مسلم"، هكذا كانوا يسمونها. اضطرب الجميع من قولها وشعروا أنهم في مأزق لأنه معروف في حفلات رأس السنة من الصعب أن تجد وجبات بدون حجز. اقترحت فطيمة الطابخة التركية أن تقوم بالطبخ بنفسها، فضحك الجميع وخف التوتر. استدعت أنيتا الشيف وعرضت عليه المشكلة. ظهر عليه التوتر هو الآخر وقال: "سأحاول إيجاد حل لها". رجع بعد خمس دقائق والجميع متلهف لمعرفة ماذا سيحدث. قال الشيف: "إن هناك وجبة بط رائعة كانت مجهزة لزوجين اعتذرا عن الحضور". أظهر الجميع سعادتهم لحل المشكلة وحسدوني بوجبة البط لأنها من

الوجبات الخاصة جدًا هناك. فكت أسارير الجلسة وبدأنا في الحوارات والقصص والنميمة والتمنيات بالعام الجديد حتى جاء الشيف مرة أخرى وسألنا ماذا نشرب قبل العشاء. الجميع يشرب العصير الطازج والبعض النبيذ وآخرون البيرة. طلبت أنيتا كأسًا من البيرة فقلت للشيف: "وأنا أيضًا كأس من البيرة". هنا قامت الدنيا ولم تقعد وبدأ الهجوم والتهجم علي. الجميع يتكلم في نفس الوقت. "أليست البيرة مثل لحم الخنزير لديكم؟ لماذا كل هذا القلق الذي سببته لنا؟ إذا كنت سوف تشرب البيرة فلن تأكل البط وسوف تأكل لحم الخنزير". استمرت الحفلة بيننا في الضحك والتهجم طوال الليل وأنا أحاول أن أقول لهم: "هذه نقرة وتلك نقرة" باللغة الألمانية وهم لا يستوعبون. حتى انتصف الليل وجاء بابا نويل يوزع هدايا رأس السنة، وكان من نصيبي زجاجة نبيذ أحمر فرنسي. ضحك وقهقه الجميع وأجمعوا أن هذا كان أجمل حفل رأس سنة من سنوات.

هير هانس

من أوجهِ الخلافِ بينَ الثقافةِ الغربيةِ والثقافةِ الشرقيةِ علاقةُ الزواجِ. في الشرقِ هي علاقةٌ بينَ الذكرِ والأنثى. أسرةُ الأنثى تريدُ أن تتخلصَ من الضغطِ النفسيِّ والاجتماعيِّ لوجودِ هذا الكائنِ الضعيفِ القلقِ الذي يحتاجُ إلى حمايةٍ مستمرةٍ، وأسرةُ الذكرِ تريدُ أن تتوجَ ذكورتهُ بإنجابِ ذريةٍ تزيدُ من قوةِ وعزوةِ العائلةِ. هنا تَحضُرني ذكرياتٌ منذُ ٢٥ سنةً عندما كنتُ أعملُ في إحدى المستشفياتِ في جامعةِ أسن. كنتُ مكلفًا بالتدريسِ لطلبةِ البكالوريوسِ غيرِ الناطقينَ باللغةِ الألمانيةِ، وكانوا طالبتينِ من إسبانيا وطالبًا من فيتنام وطالبًا من تركيا وطالبًا من فلسطين. في ليلةٍ من الليالي أتتني إحدى الطالباتِ الإسبانياتِ إلى مسكني بالجامعةِ وهي في حالةِ انهيارٍ وبكاءٍ شديدٍ. أدخلتها إلى حجرتي وربتُّ على كتفها وأجلستها بجواري ومسحتُ دموعها بيدي وطلبتُ منها أن تهدأَ وتقُصَّ عليَّ مشكلتها. قالت لي: "أنا قررتُ أن أتركَ دراسةَ الطبِّ رغمَ أني في السنةِ الأخيرةِ". نظرتُ إليها بتعجبٍ

وسألتها بدهشةٍ: "لماذا هذا القرارُ المفاجئُ؟ أتمنى ألا أكونَ أنا السببَ"، وضحكتُ لأخففَ عنها. قالت: "يا دكتور، هير هانز سوف يموتُ خلالَ أيامٍ وكلُّ الأطباءِ والطبِّ عاجزٌ عن إنقاذهِ". سألتها: "من هو هير هانز هذا؟" فأجابت: "هير هانز مريضٌ شابٌّ بالمستشفى عمرهُ ٢٦ سنةً ومتزوجٌ من فتاةٍ جميلةٍ رقيقةٍ منذُ تسعةِ أشهرٍ فقط ولم ينجبْ أطفالًا بعدُ. هير هانز أصيبَ بسرطانٍ في ساقهِ من النوعِ السيئِ (ليبوساركوما) وأجريتْ له عدةُ عملياتِ بترٍ متتابعةٍ وباءتْ كلها بالفشلِ وانتشرَ المرضُ بالرئةِ والمخِّ وأقرَّ الأطباءُ جميعًا أن حالتهُ ميؤوسٌ منها وأنه سوف يموتُ خلالَ أيامٍ إلى أسابيعَ قليلةٍ. علمَ هير هانز بحجمِ مشكلتهِ ومصيرهِ واستوعبَ ذلك جيدًا وكان له طلبٌ واحدٌ من الأطباءِ وهو أن يساعدوهُ للعيشِ لمدةِ ٣ شهورٍ فقط وأن يبذلوا قصارى جهدهم لتحقيقِ أمنيتهِ. لماذا؟ لأنه طبقًا لقوانينِ الكنيسةِ وشركاتِ التأمينِ والتأمينِ الاجتماعيِّ أن الزوجةَ لا ترثُ زوجها أو تحصلُ على معاشِ الضمانِ الاجتماعيِّ وبوالصِ التأمينِ إلا بعدَ مرورِ عامٍ على زواجهم. تعاطفَ معه جميعُ العاملينَ في المستشفى وبذلتْ كلُّ الجهودِ الطبيةِ

لإبقائهِ حيًّا بقدرِ الإمكانِ وكل صباحٍ وأثناءَ المرورِ اليوميِّ كان هير هانز يشكرنا كثيرًا لإبقائهِ على قيدِ الحياةِ ليومٍ جديدٍ. ماتَ هير هانز قبلَ انقضاءِ الشهورِ الثلاثةِ بستةِ أيامٍ وبكاه جميعُ العاملينَ بالمستشفى وتركتْ تلميذتي سيلفيا دراسةَ الطبِّ والتحقتْ بإحدى الجامعاتِ في الهندِ لدراسةِ العلومِ الإنسانيةِ (أنثروبولوجي) وعدتُ أنا إلى مصر وكأنَّ شيئًا لم يكنْ.

محاولةُ اغتيالِ لافونتين

كان هير آسنماخر، نائبُ جراحةِ المسالكِ البوليةِ، يقضي فترةَ التدريبِ في قسمِ الجراحةِ العامةِ بمستشفى جامعةِ أسن بألمانيا الغربية. كانت فترةُ التدريبِ تستمرُّ لمدةِ سنتين، وكان يُعتبرُ نائبًا ثانويًا في قسمِ الجراحةِ العامةِ. اعتاد هير آسنماخر أن يجعلني أنوبُ عنه في بعضِ النوباتِ لأنه كان مشغولًا بالاستعدادِ للزواجِ من خطيبتِه التي أنجبَ منها طفلين قبلَ الزفافِ.

في إحدى ليالي شتاءِ ١٩٨٨، كنتُ أقومُ بالمناوبةِ بدلًا عنه. أثناءَ مشاهدتي للتلفزيونِ الألماني القناةِ الثانيةِ، حيث لم تكن اخترعت أطباقُ الأقمارِ الصناعيةِ بعد، شاهدتُ حادثًا غريبًا جدًا. كان هناك مؤتمرٌ لترشيحِ السيدِ لافونتين، رئيسِ الحزبِ الأشتراكي الديمقراطيِّ، لخوضِ انتخاباتِ المستشاريةِ الألمانيةِ ضد المستشارِ هيلموت كول. أثناءَ إلقائه لكلمته، قامت سيدةٌ ترتدي ملابسَ أنيقةً وتحملُ باقةً من الزهورِ وادعت أنها تقدمها لهير لافونتين. وما أن اقتربت منه حتى أخرجت سكينًا من تحتِ باقةِ الزهورِ وطعنته في رقبته، وكل هذا على الهواءِ مباشرةً. هاجت الدنيا

وماجت، ثم انتقل الإرسالُ بعيدًا عن قاعةِ المؤتمرِ الذي كان يُعقدُ في كولن، على بعد ٢٠ دقيقة من مدينةِ أسن التي أقيمُ بها.

بعد أقل من ١٠ دقائق من مشاهدتي لهذا الحدثِ، اتصل بي هير آسنماخر من منزله ليشكرني على المناوبةِ ويخبرني أنه آتٍ إلى المستشفى خلال ٥ دقائق. في ذلك الوقت، لم أربط بين الحادثِ المروعِ الذي شاهدته في التلفزيونِ ومكالمةِ هير آسنماخر. في اليوم التالي، تقابلت معه وسألته لماذا أتيت إلى المستشفى في ليلةِ الشتاءِ القارصةِ هذه. قال لي: "أعتقد أنهم من الممكن أن ينقلوا هير لافونتين إلى مستشفانا لأنها الأقرب لكولن ومكان المؤتمر." سألته: "وهل لو أحضروه هنا ستقوم أنت بالكشفِ على هذا الزعيمِ الكبيرِ المرشحِ للمستشاريةِ وعلاجه؟" قال لي: "أكيد، لازم أنا أول من يقابله بحكمِ التدرجِ الوظيفيِّ، ثم قد أستدعي نائبَ الجراحةِ العامةِ أو الاستشاريَّ أو كليهما حسب خطورةِ حالته." نظرت له بتعجبٍ وقلت له: "تعرف، الرجل ده لو عندنا في مصر كان سبقه على المستشفى السيد رئيس الجامعة والعميد ومدير المستشفيات ووزير الصحة، ويمكن كمان مدير الأمن ومدير الاستاد.

جيسيكا وهاشم

من أغربِ العلاقاتِ التي مرت علي في حياتي تلك التي كانت بين جيسيكا السمراءِ الجميلةِ ذاتِ الشعرِ الطويلِ والجلدِ الناعمِ الحارِ من سوريناmَ بأمريكا اللاتينيةِ، و هير آن العملاقِ الأشقرِ الهولنديِّ صاحبِ الجلدِ الخشنِ الباردِ المشعرِ. كانت جيسيكا، مثلَ معظمِ أهلِ أمريكا اللاتينيةِ، خفيفةَ الظلِّ، ساخنةً لا تهدأ، تحبُّ الحياةَ وتعشقُ آن الذي منحها الجنسيةَ الهولنديةَ وجعلها تعيشُ في الشمالِ مثلَ الأميراتِ، تركبُ السياراتِ وتسهرُ في الأنديةِ الليليةِ وتحصلُ على معاشٍ من الشؤونِ الاجتماعيةِ وتسبُّ الملكةَ وتنتقدُ الحكومةَ وتقرأُ في الأدبِ والسياسةِ. هير آن من الجانبِ الآخرِ وجد القلبَ النابضَ والجسدَ الدافئَ والأنوثةَ الطاغيةَ وعبقَ الحياةِ والتاريخِ، أشياءً غيرَ متواجدةٍ في امرأةِ الشمالِ. عاشا سوياً ستَّ سنواتٍ ثم أصيب آن بمرضٍ عصبيٍّ أصاب حبله الشوكيَّ (DS) أعجزه عن الحركةِ وأصاب ذكورته في مقتلٍ. وقفت جيسيكا بجانبِ صديقها الوفيِّ تراعاه وتمرضه وتساعده في مرضه المدمرِ

لمدةِ سنةٍ ونصفٍ ثم انهارت لم تعد تقوى على كبتِ جسدها. واجهته بالحقيقةِ وشكوى الجسدِ المتمردِ. أدرك آن الرقيقُ الأزمةَ التي تعيش فيها الحبيبةُ واستوعب حجمَ المشكلةِ التي تؤرقها، ولكنه يحبها ولا يستطيع الاستغناءَ عنها، نبضاتُ قلبها هي قطراتُ السائلِ الذي يغذي عروقه. توصل إلى فكرةٍ يطفئ بها ثورةَ صديقته بحيث تظل بجانبه. له صديقٌ من السودانِ شابٌّ أسودُ قويُّ البنيةِ مهاجرٌ منذ ثلاثِ سنواتٍ ويعمل بدون عقدٍ في المطعمِ المواجهِ لشركته ويعلم أنه في أزمةٍ ماليةٍ لأنه لم يحصل على عملٍ ثابتٍ لعدم حصوله على الجنسيةِ. اعتاد هاشم السودانيُّ أن يزوره في مرضه وأن يصحبه لتلقي العلاجِ الطبيعيِّ بالمستشفى. اجتمع الثلاثةُ في مهمةِ عملٍ وكتابةِ أغربِ عقدٍ في التاريخِ. في الساعتين اللتين يذهب فيهما آن إلى المستشفى يقوم هاشم بالعودةِ إلى المنزلِ وقضائهما مع الزوجةِ ليقوم بدور الزوجِ المفقودِ ثم يعود إلى المستشفى ليحضر الزوجُ عائداً إلى البيتِ وكانت زياراتُ المستشفى ثلاثةَ أيامٍ في الأسبوعِ. تم الاتفاق بين ثلاثتهم وكتابة العقدِ على الآلةِ الكاتبةِ والتوقيع عليه منهم كلهم على أن تكون

مهمةُ هاشم هذه بلا مقابلٍ ماديٍّ. مرت سبعةُ أشهرٍ وجيسيكا وآن في سعادةٍ وحبٍّ وظل يشعر بنبضاتِ قلبِ الحبيبةِ مطمئناً أنها لم تقع في غرامِ هاشم وأنها إذا كانت قد منحته جسدها إلا أن قلبها ما زال ملكَ آن حتى جاء يومٌ اشتكى هاشم من صعوبةِ مهمته وطلب من آن أن تكون علاقته بجيسيكا يومين فقط في الأسبوعِ. لم يستطع هير آن أن يقرَّ ذلك وطلب منه أن يكون طلبه في حضورِ جيسيكا. اجتمع الثلاثةُ مرةً أخرى وعرض هاشم طلبه فثارت جيسيكا ثورةً عارمةً ورفضت وهددته إذا لم يوفِ بشروطِ العقدِ فستقوم بالشكوى ضده في المحكمةِ مما قد يعرضه لترحيله من البلدِ لأنه لا يملك إقامةً. استسلم هاشم خوفاً من تهديداتها وسعد هير آن بانتصارِ صديقته في دفاعها عن حقها.

إِيما

ما زلتُ مشغولًا جدًا بأزمةِ التعليمِ في مصر، ويصيبني اكتئابٌ شديدٌ عندما أُنتدبُ لامتحانِ الدكتوراهِ في جامعاتٍ أخرى لأنني مضطرٌ أن أجاملَ رئيسَ القسمِ كوني ممتحنًا خارجيًا، وامتحانِ الدكتوراهِ بالذاتِ لأنني أُمتحنُ طبيبًا كبيرًا في السنِّ وغالبًا متزوجًا وعنده أولادٌ في المدارسِ. أشعرُ بالإحراجِ الذي أسببه له إذا سقطَ ورجعَ إلى بيتِه ليواجهَ زوجتَه وأولادَه ويعلنَ خيبتَه أمامهم.

في العامِ ١٩٨٨ كنتُ في زيارةِ قريبٍ لي في مدينةِ أوترختَ بهولندا، وهو متزوجٌ من سيدةٍ هولنديةٍ ولديهم ثلاثُ بناتٍ. حضرتُ نقاشًا غريبًا جدًا بين الزوجِ والزوجةِ والابنةِ الثانيةِ إِيما. الابنةُ هذه نجحتْ في امتحانِ المدرسةِ المتوسطةِ وانتقلتْ إلى المدرسةِ العليا. الأبُ فلاحٌ من الدقهليةِ وسعيدٌ جدًا لنجاحِ ابنتهِ. الأمُّ والابنةُ غيرُ سعيدتينِ. الأمُّ ترى أن الابنةَ كانت محظوظةً في الامتحاناتِ ونجحتْ بالمصادفةِ، بل وترى أنها يجبُ أن تعيدَ السنةَ من جديدٍ حتى يتحسنَ مستواها وتستطيعَ اللحاقَ

بالمدرسةِ العليا بمستوى تعليميٍّ أفضلَ يمكنها من اجتيازِ الموادِّ الصعبةِ المقبلةِ. هي كأمٍّ تعلمُ أن القدراتِ الذهنيةَ لهذه الابنةِ بالذاتِ أقلُّ من سنِّها ومن أخواتِها الأخرياتِ، والأفضلُ لها أن لا تحاولَ اجتيازَ مراحلِ التعليمِ بسرعةٍ لا تناسبُ إمكانياتِها الذهنيةِ. الأغربُ في الموضوعِ كله أن إيما مقتنعةٌ تماماً بكلامِ ورأيِ أمها، ولكن ما يحزنُها أن زميلاتِها سوف يتركنَ المدرسةَ الحاليةَ لمدرسةٍ أخرى وتظلُّ وحيدةً بين رفاقٍ غرباءَ عنها. الأبُ جالسٌ ينظرُ لهما نظرةً فيها بعضُ السعادةِ وكثيرٌ من البلاهةِ ولا يعي ما يقولون.

أنجريدا

حتى عام ١٩٨٨، كانت نظرتي للمرأةِ عمومًا مثل نظرةِ أيِّ رجلٍ شرقيٍّ؛ أنها ليست إنسانًا كاملًا وإنما كمالةً للرجلِ، وهي لاستخدامهِ إما للمتعةِ أو كوعاءٍ لتخميرِ ذريتهِ التي سوف تحمل شرفَ اسمهِ الخالدِ. في هذا العامِ، قابلتُ أنجريتا، امرأةً في العقدِ الثالثِ من العمرِ، رئيسةَ تمريضِ عملياتِ الجراحةِ في جامعةِ أسن، ثقةً متناهيةً في النفسِ، كفاءةً عاليةً جدًا في العملِ، وقدرةً عظيمةً في السيطرةِ على ممرضاتِ العملياتِ وسيرِ العملِ. في البدايةِ، كانت نظرتي مختلفةً؛ كنتُ أراها امرأةً جميلةً ذاتَ عيونٍ عسليةٍ خلابةٍ وشعرٍ أسودَ نادرٍ بين الألمانياتِ ويوحي بجذورٍ شرقيةٍ، عنقَ فينوسَ وسيقانٍ تحتاج فنانًا تشيكيًا لوصفها. هذا غيرُ شياكةٍ في ملابسها وروعةٍ في روائحِ عطرها. لم أقوَ في يومٍ من الأيامِ على التجاوزِ معها في الحوارِ سواءً مباشرةً أو بالتوريةِ، حتى كان هذا اليومُ الذي اكتشفتها فيه من جديدٍ.

كنتُ قد تدربتُ على استخدامِ جهازٍ روسيٍّ جديدٍ لإجراءِ توصيلِ الأمعاءِ، وكان يضاهي ويتفوق على أحدثِ الأجهزةِ الأمريكيةِ من شركةِ أثيكون. كنتُ الوحيدَ الذي استخدمهُ، وقد اعتاد كلُّ الجراحينَ على استدعائي في كلِّ العملياتِ التي تحتاج إلى استخدامهِ، حتى جاء هير فوجت من قسمِ جراحةِ الأوعيةِ الدمويةِ وبدأ العملَ معنا في وحدةِ الجهازِ الهضميِّ. في إحدى عملياتِ القولونِ التي تحتاج استخدامَ الجهازِ، وحسب الترتيباتِ المعتادةِ، كنتُ أنا المساعدَ له. بعد الاستئصالِ وحان وقتُ استخدامِ الجهازِ، قالت مس أنجريتا: "هلمَّ يا هير عبد اللطيف (أنا) لتركيبِ الجهازِ وعملِ التوصيلِ." تعجب هير فوجت من الطلبِ وقال: "أنا من سيركب الجهازَ ويعمل التوصيلةَ." قالت له: "لن تستطيعَ، وهير عبد اللطيف الوحيدُ الذي يعرف تركيبهُ." فرد بعجرفةٍ شديدةٍ وقال: "أنا لا أستوعب أن هناك واحدًا من العالمِ الثالثِ يستطيع عملَ شيءٍ لا أستطيع عملهُ." تغير وجهُ أنجريتا وظهر عليها غضبٌ شديدٌ، ثم نظرت إليَّ نظرةَ محبةٍ فهمتُ منها أن أظلَّ صامتًا. تركت هير فوجت في محاولاتٍ مستميتةٍ أن يركب الجهازَ

بلا جدوى، وبعد حوالي عشرين دقيقةٍ ترك الجهازَ بشكلٍ فيه غرورٌ وقال لها: "خلاص، دعي صديقكِ يقوم بالمهمةِ." هنا كشرت أنجريتا عن أنيابها وقالت له: "لن يفعل شيئًا قبل أن تتأسفَ له وتترك غرفةَ العملياتِ ليكمل هو العمليةَ، وأنا تقريري عما حدث سيكون أمام رئيسِ القسمِ في الصباحِ الباكرِ." نظر إليها هير فوجت نظرةَ مزيـجٍ من الغضبِ مع العتابِ والأسفِ، وترك غرفةَ العملياتِ كالأسدِ المنكسرِ. أتممتُ العمليةَ ولسانُ حالي يقول: "إن جمالَ هذه المرأةِ في عقلها وشخصيتها أكثرُ كثيرًا مما بدا لي في مظهرها وجسدها."

من توابعِ هذه الحادثةِ أنني اضطررتُ أن أدعو أنجريتا وزوجها هير أربيشت، وهو أستاذُ طاقةٍ نوويةٍ في جامعةِ هايدلبرج، إلى الغذاءِ في مطعمٍ صينيٍّ، وكلفني هذا حوالي ٣٥٠ مارك، لم أحزن عليهم رغم فقري الشديدِ.

حسناء

بالرغمِ من أنَّ چوليا قد أضنتْ نفسها وسنواتِ شبابِها في قراءةِ كتبِ التاريخِ والأدبِ الغربيِّ واللاتينيِّ وأيضًا العربيِّ وعلمِ الأنثروبولوجيا ودراساتِ اللغةِ الإسبانيةِ وآدابِها، إلا أنها كانت إنسانةً بسيطةً للغايةِ، تأخذُ قراراتِها بلا ترددٍ أو تراجعٍ، مكتفيةً بقناعةٍ اكتسبتها من ثقافتها وخبراتها بالحياةِ. هي لا تتورعُ عن مواجهةِ البشرِ بأفعالِهم وأخطائِهم بلا مواربةٍ أو خجلٍ. صحيحٌ قد لا تبدو الأنثى الرقيقةَ المجاملةَ، لكنها سهلةُ الفهمِ واضحةٌ للعيانِ، لا تتركُ أيَّ انطباعٍ بالتوترِ أو الغموضِ لدى محدثِها، ومبعثٌ للثقةِ والاعتمادِ لمن يلجأُ إليها.

كانت حسناءُ على النقيضِ منها تمامًا. حسناءُ، أخصائيةُ التمريضِ بمستشفى وزارةِ الصحةِ بمحافظةِ الجيزةِ، من مواليدِ إحدى المدنِ الصغيرةِ بمحافظةِ كفرِ الشيخِ، كانت حييةً خجولةً، تربتْ في جوٍّ محافظٍ، تعلمتْ أن لا تثقَ في كلِّ ما تسمعُه أو حتى تراه. تربيتُها الدينيةُ ومجتمعُها المغلقُ المفعمُ بالنميمةِ جعلها تراجعُ كلَّ شيءٍ تسمعُه وتتشككُ فيما تراه وتراجعُ حساباتِها قبلَ كلِّ قرارٍ، وقلما

اضطرتْ إلى أخذِ أيِّ قرارٍ. ككلِّ بناتِ مجتمعِها، توجستْ من قراءةِ الكتبِ التي قد تحملُ في طياتِها ما يخالفُ تقاليدَ مجتمعِها أو ثوابتَ دينِها، حتى كتبِ الدراسةِ الطبيةِ كانت ترى فيها ما يخجلُ حياءَها وتتجنبُ الغوصَ في دراسةِ بعضِ موضوعاتِها. بالرغمِ من هذا الحملِ الثقيلِ للثباتِ في وسطِ مجتمعٍ ذكوريٍّ، كان جمالُها المثيرُ حملًا أشدَّ وطأةً وثقلًا على نفسِها، وأكثرَ سببًا لتجنبِ الغوصِ في أيِّ شيءٍ قد يحملُ خلفَه ما خفي. طبيعةُ عملِها أيضًا جعلتْها لا تملكُ التفكيرَ في أيِّ شيءٍ سوى أن تحافظَ على نفسِها من كلِّ عينٍ أو يدٍ من بشرٍ كثرٍ يحيطون بها في عملِها.

في شتاءِ عامِ ١٩٨٤، اتصلَ بي اللواءُ طبيب... وطلبَ مني الذهابَ إلى المستشفى نفسِها للاطمئنانِ على مريضةٍ يشكُّ أن حالتها حرجةٌ، واتصلَ به زوجُها يطلبُ منه العونَ العاجلَ. ذهبتُ على عجلٍ إلى المشفى ومباشرةً إلى غرفةِ المريضةِ، وكانت الساعةُ الثانيةَ بعدَ منتصفِ الليلِ، ولفتَ نظري أنني لم أقابلْ أحدًا من الممرضاتِ أو العمالِ، وحتى حارسُ المستشفى كان نائمًا على كرسيٍّ وملتحفًا من رأسِه إلى قدميهِ. ما أن دخلتُ إلى المريضةِ حتى وجدتها في حالةٍ يرثى لها، في صدمةٍ عصبيةٍ شديدةٍ، لونُها باهتٌ

للغايةُ ومبتلةٌ بالعرقِ، وملاءةُ السريرِ غارقةٌ في الدماءِ. فهمتُ أن المريضةَ أجريتْ لها عمليةُ ولادةٍ قيصريةٍ وحدثَ لها نزيفٌ شديدٌ بعدَ الولادةِ. خرجتُ مسرعًا إلى الممرِّ وصرختُ بصوتٍ عالٍ جدًا أطلبُ أيًا من العاملين في المستشفى، حتى جاءني عاملٌ نائمٌ يسيرُ مترنحًا وبالكادِ يفتحُ عينيهِ، ونظرَ إليَّ غاضبًا متعجبًا من وجودي في هذا الوقتِ، وسألته أين الممرضةُ أو الطبيبُ النوبتجيُّ. بدأتُ بالصياحِ والمطالبةِ بإحضارِ مديرِ المستشفى في الحالِ. أتتْ حسناءُ ووقفتْ بجوارِ العاملِ، وبدأتْ هي الأخرى غاضبةً من الضوضاءِ التي تسببتْ بها، وقلتُ لها يجبُ نقلُ المريضةِ في الحالِ إلى العنايةِ المركزةِ وإعطاؤها الدمَ والمحاليلَ في الحالِ. نظرتْ لي حسناءُ بعيونٍ ناعسةٍ وحاولتْ كسبَ ودي وهدوئي بنظراتٍ مثيرةٍ، وقالتْ لي إنها لن تفعلَ شيئًا قبلَ إحضارِ النائبِ من السكنِ وأخذِ رأيهِ. صرختُ فيها ودفعتُها جانبًا وذهبتُ إلى المريضةِ ودفعتُها بسريرِها مع زوجِها إلى الخارجِ متجهين إلى المصعد ومنه إلى العنايةِ المركزةِ. بدأتُ مع طبيبِ العنايةِ في إعطاءِ المريضةِ المحاليلَ والمنبهاتِ حتى استردتْ ضغطَها ونبضَها، وحتى أحضرَ زوجُها الدمَ، وكانت الساعةُ قد أصبحتْ التاسعةَ صباحًا، وحضرَ

مديرُ المستشفى إلى العنايةِ مباشرةً لأنه قد أبلغَ بالوضعِ في ساعاتِ الصباحِ الأولى. أخذني المديرُ إلى مكتبِه مرحبًا بي عندما علمَ أنني مساعدُ اللواءِ طبيب... وأحضرَ الممرضةَ حسناءَ والطبيبَ النوبتجيَّ وطلبَ سماعَ أقوالِهم. لم تنكرْ حسناءُ أن زوجَ المريضةِ طرقَ البابَ عليها عدةَ مراتٍ وبصورةٍ مستفزةٍ، لكنها رفضتْ أن تفتحَ له البابَ في هذا الوقتِ المتأخرِ لأنها اعتقدتْ أن هذا الرجلَ ليس حسنَ النيةِ، وأنه قد يقصدُ أن يختليَ بها في هذا الوقتِ من الليلِ، وأنه حتى عند العصرِ كان بصحبتِه أخوه الذي كان ينظرُ إليها نظراتٍ مريبةً وبها تلميحاتٌ خبيثةٌ، وخشيتْ أن يكونَ هذا الأخُ متواجدًا في هذه اللحظاتِ. تعاطفَ مديرُ المستشفى مع مشاعرِها واحترمَ اهتمامَها بعفتِها، لكنه لامَها بكلِّ إحساسِ الأبِ الحنونِ على عدمِ استدعائِها للنائبِ من سكنِه عن طريقِ أحدِ العمالِ. كاد شكُّ حسناءَ وظنُّها وحساباتُها الخاصةُ أن تقتلَ المريضةَ البائسةَ، لكن يغفرُ لها حرصُها على عفتِها.

بريجيتا

اعتادتْ مجلةُ الجراحةِ البريطانيةِ أنْ تنشرَ في عددِها الأولِ من كلِّ عامٍ موضوعًا اجتماعيًا يمسُّ حياةَ الجراحينَ ويعرضُه بصورةٍ علميةٍ شيقةٍ. على سبيلِ المثالِ، تأثيرُ تناولِ المخدراتِ أو الخمورِ بينَ الجراحينَ وتأثيرُه على العملِ، أو مثلِ الخلافاتِ الزوجيةِ التي تنجمُ عن طبيعةِ عملِ الجراحِ أو الجراحةِ وغيابِهم عن المنزلِ لفتراتٍ طويلةٍ، أو العلاقاتِ العاطفيةِ التي قد تنشأُ بينَ الجراحِ وإحدى مريضاتِه أو بينَ الجراحةِ وأحدِ مرضاها. وهذا الموضوعُ الأخيرُ منتشرٌ ويمكنُ تقبلهُ في الغربِ نظرًا للتقاربِ الثقافيِّ والاجتماعيِّ بينَ الأطباءِ والمرضى، وأيضًا لأنَّ العلاقةَ في الأساسِ تكونُ مزيجًا من الرعايةِ الطبيةِ والإنسانيةِ في نفسِ الوقتِ بما يفتحُ البابَ لتبادلِ العواطفِ والتقاربِ الإنسانيِّ.

في شتاءِ العامِ ١٩٨٨، كنتُ أقومُ بإجراءِ فحصٍ بالعيادةِ الخارجيةِ لوظيفةِ المستقيمِ للمرضى الذينَ أجروا عملياتِ استئصالٍ وتحويلٍ للقولونِ. حتى إذا تأكدتُ من أنَّ الوظيفةَ عادتْ إلى

طبيعتِها، أنصحُ المريضَ بالذهابِ لعملِ الجزءِ الثاني من العمليةِ ليعيشَ حياةً طبيعيةً. وكنتُ أجري الفحصَ للمريضِ كلَّ أسبوعينِ ويكررُ حتى الأسبوعِ الثاني عشرَ. كانتْ فراو بريجيتا، وهي فتاةٌ شقراءُ جميلةٌ تعاني من مرضٍ مناعيٍّ نادرٍ، قد جاءتني في أولِ فحصٍ وفوجئتُ أنَّ علاماتِ فحصِها جيدةٌ جدًا من أولِ مرةٍ. قلتُ لها إنَّه يمكنُها إجراءُ العمليةِ من الآنِ والعودةُ لحياتِها الطبيعيةِ. فوجئتْ بالفتاةِ تثورُ في وجهي وتشكنني في نتيجةِ الفحصِ وفي قيمتِه وفي الجهازِ نفسهِ. أربكني الموقفُ وقلتُ لها لا تنزعجي وارجعي بعدَ أسبوعينِ لإعادةِ الفحصِ. قالتْ لي لا، لن أنتظرَ أسبوعينِ وسأحضرُ بعدَ أسبوعٍ واحدٍ. لم أمانعْ حتى تهدأَ الأمورُ وأعطي لنفسي فرصةً لمراجعةِ كلِّ شيءٍ. الغريبُ في الأمرِ أنَّ نفسَ الموقفِ تكررَ في الزيارةِ الثانيةِ والثالثةِ. فقلتُ لها سأحيلكِ للبروفيسورِ لمراجعةِ الفحصِ وأخذِ الرأيِ. ما أنْ قلتُ ذلك حتى غضبتْ غضبًا شديدًا وقالتْ لي أنا لستُ موديلًا للعرضِ وأنتَ الوحيدُ المسؤولُ عن عملِك وأنا لستُ في عجلةٍ لإجراءِ الجراحةِ الأخرى. احترتُ في أمرِها حتى كان في أحدِ أيامِ اجتماعِ القسمِ اليوميِّ والذي يحضره

كلُّ أعضاءِ القسمِ، فوجئتُ بالبروفيسورِ شخصيًا يسألني عن هذه المريضةِ وهو شيءٌ غيرُ معتادٍ. توجستُ خيفةً أنْ تكونَ هذه المريضةُ قد تقدمتْ بشكوى له عن نتيجةِ الفحصِ، فقررتُ أنْ أقصَّ عليه القصةَ كاملةً. ما أنْ انتهيتُ من حكايتي حتى عمَّ الضحكُ القاعةَ وحتى البروفيسورُ الوقورُ لم يتمالكْ نفسه من الضحكِ. شعرتُ باستياءٍ وأحسستُ أنني أصبحتُ أضحوكةَ هؤلاءِ الألمانِ العنصريينَ واحمرَّ وجهي ولم أفهمْ شيئًا. شعرتْ فراو لينا، وهي استشاريةُ مسالكَ بوليةٍ، بموقفي فتحدثتْ حتى يصمتَ الجميعُ وقالتْ الحلُّ الوحيدُ لإقناعِ المريضةِ بكلامِك هو أنْ تدعوها إلى سهرةٍ خارجَ المستشفى وتحضرَ لها بعضَ الورودِ وسوف تجدُها أرقَّ مريضةٍ في الوجودِ. لم أفهمْ مباشرةً وما زال الجميعُ ما بينَ الضحكِ وبعضِ الحقدِ حتى تكلمَ البروفيسورُ وقال لي يبدو أنَّ الجراحَ الشرقيَّ الشابَّ يعاملُ مرضاهُ بحنانٍ زائدٍ. قاربتُ على الفهمِ وتأكدتُ من كلامِهم عندما تقابلتُ أنا وفراو بريجيتا في كازينو على نهرِ الراينِ وبينَ الزهورِ الطبيعيةِ واقتنعتْ ساعتها أنَّ

الفحصَ كان جيدًا وأنَّها على استعدادٍ لإجراءِ الجراحةِ على أنْ أستمرَّ في متابعتِها بعدَ العمليةِ باستمرارٍ.

إيلين ١

كنتُ في بدايةِ بعثتي إلى ألمانيا الغربية قد تعرفتُ على فتاةٍ بولنديةٍ تعملُ في قسمِ الباثولوجيا وكنتُ أقصدُ إليها أسبوعيًا لمتابعةِ نتائجِ التحاليلِ الخاصةِ بالجزءِ التجريبيِّ. كانت فتاةً شقراءَ وعيونُها زرقاءَ صافيةً، تبدو عليها كلُّ جذورِ الجنسِ الآريِّ النقيِّ. كانت صغيرةَ الحجمِ، بشوشةَ الوجهِ، نشطةً كثيرةَ الحركةِ، وكانت كثيرًا ما تحبُّ استفزازي سائلةً: "هل ما زلتَ ترى الغربَ قاسيَ القلبِ عديمَ الضميرِ؟" لم أدركْ في ذلك الوقتِ ولمدةِ عدةِ أشهرٍ تاليةٍ أنها يهوديةٌ، وعلى العكسِ، كنتُ أراها أكثرَ خفةَ دمٍ وبشاشةً من معظمِ الألمانياتِ والبولندياتِ في المشفى نفسه. في أحدِ أعيادِ الكريسماسِ، وكان معظمُ العاملين بالمستشفى في إجازةٍ، صادفتُها في المصعدِ تحملُ الصندوقَ التقليديَّ بشرائحِ الباثولوجيا. تعجبتُ من وجودِها في العملِ في هذا الوقتِ وسألتُها لماذا لم تقمْ بإجازةِ الكريسماسِ، فقالت لي إنها تجمعُ جميعَ إجازاتِ السنةِ لتأخذَها في عيدِها وتذهبَ إلى بولندا. فسألتُها: "أي أعيادٍ تقصدين؟"

فقالت لي بضحكةٍ صفراءَ فيها كثيرٌ من الشفقةِ: "أعيادِنا نحنُ اليهودِ، أليستْ لكم أعيادُكم أنتمُ المسلمينَ وخاصةً في الشرقِ؟" صدمتني إجابتها، وإن كنتُ قد تعرفتُ سابقًا على عددٍ من اليهودِ الألمانِ في ظروفٍ مختلفةٍ، لكنني لم أدرِ لماذا حزنتُ عندما عرفتُ أن أيلينَ الرقيقةَ البشوشةَ يهوديةٌ. شعرتْ أيلينَ بحيرتي وبذكائها أدركتْ أزمتي وابتسمتْ وقالت لي: "لا تحملْ نفسَك فوقَ طاقتها، نحنُ موجودونَ في الحياةِ ولكَ أن تحبَّنا أو تكرهَنا، أن تقبلَنا أو ترفضَنا. دعْك من التفاصيلِ ورواسبِ التاريخِ والماضي وأحقادِ الحاضرِ وحساباتِ المستقبلِ. العالمُ يضجُّ بالبشرِ من كلِّ لونٍ وعرقٍ ودينٍ، ولن تستريحَ نفسُك إلا لمن له نفسٌ صافيةٌ وروحٌ غالبةٌ وقلبٌ نابضٌ." لم تسعفني كلماتُها، لكنني تعمدتُ أن أبدوَ طبيعيًا وواصلتُ الترددَ عليها بسببِ العملِ، وكل مرةٍ كان ذهني يعذبني، لكن كانت نفسي تروقُ لرؤيتها، وروحي تسعدُ بلقائها، وقلبي ينبضُ عندها. أحسستُ بصدقِ كلامِها عن البشرِ، وكانت تشعرُ بالانتصارِ عليَّ وهي سعيدةٌ، وهزمتني أكثرَ ما هزمتني عندما قالت لي: "هير عبد اللطيف، صدقتَ فعلاً، فالغربُ قاسيَ القلبِ

عديمَ الضميرِ. فأنا لم أصادفْ من بين كلِّ من عاملتُ وعاشرتُ من كلِّ الألمانِ العنصريينَ مثلَ صدقِك وعواطفِك، فقط لكوني يهوديةً."

إيلين ٢

كانت إيلين اليهوديةُ الساحرةُ لا ترى ولا تفعلُ سوى ما تريدُ. حتى ابتسامتها وتحياتها للآخرين كانت بلا إسرافٍ، وأحيانًا تعتبرها تنازلًا مكلفًا لا داعي له إذا أمكن ذلك. كان لها هدفٌ واحدٌ في حياتها وهو جمعُ المالِ والعودةُ إلى وطنها وعشيقها، في الوقت الذي هجر والداها المساكينُ إلى إسرائيلَ حينما كانت في العاشرةِ من عمرها وبقيت هي في حضانةِ خالها. كان والداها مما يطلق عليهم الدينيين المتطرفين، وقد سافرا إلى إسرائيلَ للتطوعِ في الجيشِ إبان حربِ الشرقِ الأوسطِ الثانيةِ في ١٩٧٣ وتركها خوفًا عليها.

ما أن وصلت سنَّ السادسةَ عشرةَ حتى تركت بيتَ خالها وانضمت إلى أحدِ الأحزابِ اليساريةِ المتطرفةِ في بولندا في وقتٍ كانت الشيوعيةُ نفسها تقتربُ من نهايتها. تعرفت على طبيبِ أسنانٍ بولنديٍّ وعاشا معًا ورفضت كلَّ محاولاتِ والديها للحاقِ بها في إسرائيلَ. نسيت اليهوديةَ وأصبحت في حكمِ اللادينيين هروبًا من ملاحقةِ أهلها باعتبارها يهوديةً مرتدةً، حكمها في حكمِ الخيانةِ العظمى للدينِ ويجب ملاحقتها وحبسها حتى تعودَ إلى رشدها.

انتقلت أولًا إلى ألمانيا الشرقيةِ للتحررِ من هذه الملاحقةِ، ثم تسللت من سورِ برلينَ إلى ألمانيا الغربيةِ وعملت بعقدٍ مؤقتٍ كلاجئةٍ سياسيةٍ في قسمِ الباثولوجيا في نفسِ المشفى الذي كنت أعملُ به. مثلها مثل كلِّ من يأتي من الشرقِ، هزمتها المدينةُ الحديثةُ والحريةُ والثراءُ الفاحشُ في كلِّ شيءٍ، وفخامةُ الملابسِ والمساكنِ، حتى الأدبُ والموسيقى والمسرحُ بدوا أكثرَ ثراءً وروعةً. للمرة الثانية بعد نسيانها اليهوديةَ، نسيت الشيوعيةَ وندمت على شبابٍ أضاعته في مبادئٍ وقيمٍ اعتقدت أنهما أهمُّ ما في الحياة.

في العام ١٩٨٨، كانت تبلغ من العمر ٢٥ عامًا وقد تقلبت على كلِّ الأسرِ وخبرت كلَّ البشرِ وتعلمت أن العالمَ بازدحامه والكونَ باتساعه لن تستريحَ فيه نفسٌ تائهةٌ بين البشرِ وروحٌ هائمةٌ في العدمِ، جسدٌ يئنُّ في الفراغِ. علمت أن الوطنَ داخلها والسكونَ لن يكون سوى بين جوانحها، والعقلَ خادعٌ مخدوعٌ بغروره ومغلوبٌ على أمره بما يدعيه الآخرون وهم أضلُّ سبيلًا.

حي سوهو

صناعةُ الأفلامِ الإباحيةِ (البورنو) من الصناعاتِ الرائجةِ في معظمِ دولِ العالمِ الغربيِّ، ولها تجارتُها وإنتاجُها الفنيُّ الغزيرُ، وأفلامٌ ومحطاتٌ تلفزيونيةٌ بل وأقمارٌ صناعيةٌ خاصةٌ بها. ومع ذلك، هناك شيئانِ يحجمانِ من شعبيةِ هذه التجارةِ. أولهما أنها مرفوضةٌ بشكلٍ شبهِ عامٍّ من ثقافةِ وعرفِ هذه الشعوبِ، ومتعارفٌ عليه أن هذه التجارةَ تجارةٌ مخجلةٌ وتثيرُ اشمئزازَ الأسرةِ المتوسطةِ الطبيعيةِ. أما الشيءُ الثاني فهو أن الإعلامَ لا يتطرقُ لمثلِ هذه الصناعةِ، مما يجعلُها شبهَ منبوذةٍ أخلاقياً وثقافياً.

وتحضرني هنا حادثةٌ حدثت لي شخصياً. كنتُ قد سافرتُ من ألمانيا إلى لندن للتقديمِ في هيئةِ الجراحينَ الملكيةِ للحصولِ على الزمالةِ البريطانيةِ، وبعد أن انتهيتُ من المهمةِ مبكراً، ذهبتُ للتسكعِ بميدانِ بيكادلي الشهيرِ. وبعد التجوالِ لساعاتٍ، أخذتني قدماي فضولياً إلى حيٍّ سوهو الشهيرِ الملاصقِ للميدانِ. وما أن دخلتُ الحيَّ حتى أصابني الذعرُ والاشمئزازُ مما رأيتُ: كبارييهاتٌ

ومحلاتُ البورنو وتربصُ القوادينَ بي، حتى هرعتُ راجعاً إلى حيثُ أتيتُ.

بعد عدةِ أيامٍ عدتُ إلى ألمانيا، وفي حوارٍ مع صديقي الألمانيِّ نائبِ الجراحةِ، قصصتُ عليه ما حدث وما شاهدتُ في حيِّ سوهو، حتى فوجئتُ به في غايةِ الاستغرابِ مما فعلتُ. قال لي إنني محظوظٌ لأنني غيرُ معروفٍ هناك ولم يشاهدني أحدٌ، لأنني لو شوهدتُ هنا في مدينةِ إيسن من قبلِ أيٍّ من العاملينَ أو المرضى في حيِّ البورنو، فهذا بالطبعِ له توابعُ وخيمةٌ تنهي مستقبلي العلميَّ في مستشفى الجامعةِ في إيسن، لأن ذلك مرفوضٌ ثقافياً واجتماعياً لطبيبٍ مؤتمنٍ على صحةِ وأسرارِ مرضاهُ وعلاقتهِ بزملائهِ وزميلاتهِ. رفضُ الانحطاطِ الأخلاقيِّ أو الثقافيِّ أو الفنيِّ هو سلوكٌ عفويٌّ ويعكسُ المستوى الثقافيَّ لعمومِ الشعبِ.

غربة في الوطن

فِي مثلِ هذهِ الأيامِ من عامِ ١٩٨٩، كنتُ قد أنهيتُ الجزءَ التجريبيَّ من رسالةِ الدكتوراهِ، وهي عملياتٌ طويلةٌ مجهدةٌ على الخنازيرِ. بعدَ جمعِ نتائجِ العملِ والصورِ والجداولِ، سعدتُ سعادةً بالغةً لأنَّ النتائجَ جاءت كما توقعنا وكانت مبهرةً، ولن أحتاجَ إلى اللجوءِ إلى الخنازيرِ مرةً أخرى، حتى وإن كنتُ سأفتقدُ رؤيةَ الشقراءِ الرقيقةِ لورديس، راعيةَ الزريبةِ، التي ودعتها وداعًا حارًا. ذهبتُ إلى قسمِ الجراحةِ سعيدًا بهذا الإنجازِ، ولاحظتِ الممرضاتُ والزملاءُ الأطباءُ سعادتي وعرفوا سببَها. فما كان منهم إلا أن جاءت الساعةُ الخامسةُ مساءً، موعدُ الانصرافِ، وفوجئتُ بهم قد أعدوا حفلةً بسيطةً رائعةً لي بها الكثيرُ من الحلوى وزجاجاتِ النبيذِ. كانت مفاجأةً سارةً جدًا، أغرورقت عيناي بالدموعِ، وأحسستُ تجاهَ الجميعِ بالحبِّ والعرفانِ والودِّ المتبادلِ، وأكلنا الحلوى وشربوا هم النبيذَ المثلجَ.

لماذا تذكرتُ هذا اليومَ؟

منذ ما يقربُ من أسبوعٍ، استدعيتُ في إحدى المستشفياتِ الخاصةِ لمناظرةِ مريضةٍ أتت بآلامٍ حادةٍ في البطنِ. بالكشفِ عليها، وجدتُ تورمًا ضخمًا بالبطنِ، وبعدَ إجراءِ الفحوصاتِ والتحاليلِ والأشعاتِ، قررتُ أنَّ المريضةَ تحتاجُ إلى عمليةِ استكشافٍ عاجلةٍ. أجريتُ العمليةَ ووجدتُ لدى المريضةِ ورمًا نادرًا جدًا يلتفُّ حوله معظمُ أمعائها الدقيقةِ. بذلتُ جهدًا كبيرًا استمرَّ ما يقربُ من أربعِ ساعاتٍ لاستئصالِ الورمِ مع الحفاظِ على الأمعاءِ بقدرِ الإمكانِ، والحمدُ للهِ كللَ مجهودي بالنجاحِ. بالرغمِ من الإرهاقِ الشديدِ، إلا أنني كنتُ في غايةِ النشوةِ، وخرجتُ من المستشفى وأنا أحلمُ بعملِ بحثِ حالةٍ أنشره في إحدى الدورياتِ. كنتُ قد تركتُ سيارتي بالشارعِ خارجَ المستشفى، وأدرتُ المحركَ، وبمجردِ سيري بالسيارةِ أمتارًا قليلةً، إذا بميكروباصٍ يأتي من جانبِ الشارعِ ليصدمَ سيارتي من الأمامِ وينزعَ أكصدامَها نزعًا. خرجتُ من السيارةِ لألملمَ أشلاءَها، فإذا بسائقِ الميكروباصِ يأتي تجاهي ويصبُّ عليَّ كلَّ أنواعِ السبابِ واللعناتِ والألفاظِ البذيئةِ، ويقفُ زملاؤه السائقون ليشاركوا زميلَهم حفلَ إهانتي وسبّي. أغرورقت

عيناي مرةً أخرى بالدموعِ، وشعرتُ بحقارةِ حياتي وحقارةِ مجهودي في المستشفى، ومرَّ بي زميلٌ لي ينزعني من معركةِ الفتكِ بي. تركتُ له سيارتي ليتعاملَ معها، وسرتُ على قدمي أتذكرُ الحلوى وزجاجاتِ النبيذِ، وعرفتُ أنه أحيانًا يجدُ الإنسانُ وطنًا في غربتِه، ويجدُ نفسَه غريبًا في وطنِه.

المُحتَوَياتُ

چوليا ٧
اللقاءُ الأوَّلُ ٩
محفوظ ١٢
الحَرام ١٤
أصالةٌ ١٦
الذِّئْب ١٨
الصَفعةُ ٢١
فيلمٌ أمريكيٌّ ٢٥
آنا كارنينا ٢٨
الجدةُ ٣١
إيفانز ٣٤
أغتصاب ٣٧
الحُب في زَمن الكوليرا ٤٠
الزوجُ المخادعُ ٤٣
رمضان في أمستردام ٤٦
الفخذ المشوي ٤٩
كيف تقول لا ٥٢

الجنةُ البعيدةُ ٥٦
شهرزاد ٥٩
إنتصارٌ أحمقٌ ٦٢
يوتوبيا الماضي ٦٥
مأساةٌ حقيقيةٌ ٦٩
خيانةٌ ٧٣
الحِرْباءُ ٧٦
فراو إنجيلا و مستر مور ٨٠
عزاء هير فولفجانج ٨٤
سقوط طائرة ٨٨
قصةُ البالطو الفوشيا ٩٠
علية القوم ٩٤
اللقاء الأخير ٩٧
ليلة الوداع ١٠٠
أمُّ الخيرِ ١٠٣
رحلةٌ إلى المقابرِ ١٠٦
المركبُ ١١٠
حكايات أخرى.. ١١٣
فريدريك ١١٥
مجيدة ١١٨

رحلةُ القمرِ ١٢٢
نيكول ١٢٦
لورديس عارية ١٢٨
انتحار لورديس ١٣١
صراع القطبين ١٣٤
هير أوليفيه ١٣٦
عُرْسُ ابْنَةِ البروفيسورِ ١٣٨
هذه نقرةٌ و تلك نقرةٌ ١٤١
هير هانس ١٤٤
محاولةُ اغتيالِ لافونتين ١٤٧
جيسيكا وهاشم ١٤٩
إيما ١٥٢
أنجريدا ١٥٤
حسناء ١٥٧
بريجيتا ١٦١
إيلين ١ .... ١٦٥
إيلين ٢ .... ١٦٨
حي سوهو ١٧٠
غربة في الوطن ١٧٢

تم بحمد الله